

الاتجاه الإشاري عند ابن أبي جمرة

في شرح مختصر صحيح البخاري

عرض ونقد

إعداد الدكتور

نادي عبد الله محمد عبد المجيد

أستاذ الحديث وعلومه المساعد

في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة

جامعة الأزهر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الاتجاه الإشاري عند ابن أبي جمرة في شرح مختصر صحيح البخاري (عرض ونقد)

نادي عبد الله محمد عبد المجيد

قسم أصول الدين، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقااهرة، جامعة الأزهر

البريد الإلكتروني: Nadyabdallah673@gmail.com

ملخص البحث:

الاتجاه الإشاري في فهم النص النبوي الشريف، واستنباط الحكم والفوائد اللطيفة منه، هو اتجاه يقوم على تأويل الحديث النبوي الشريف على خلاف ظاهره، لإشارات خفية تظهر لأولي العلم، الذين أخلصوا لله في علمهم وعملهم، مع إمكان الجمع بين المعنى الظاهر المراد من الحديث، والمعنى المشار إليه، وهم بذلك لا يخالفون أصول الشريعة، وإنما هو إشارات خفية تجري على خواطهم، ثمرة التأمل والنظر في الحديث النبوي الشريف، والإمام ابن أبي جمرة يعتبر من رواد هذا الاتجاه، في الحديث الشريف، في شرح مختصر صحيح الإمام البخاري، فقد كان يهدف في كل حديث يشرحه أن يستنبط منه حكمة وإشارة وفائدة، بقصد إصلاح الباطن وتهذيب السلوك، مع اعتبار المعاني الظاهرة المستنبطة من النص النبوي الشريف

وهذا البحث محاولة لإبراز هذا الاتجاه الإشاري في فهم النص النبوي الشريف، فتعرض المبحث الأول: ترجمة الإمام ابن أبي جمرة، والتعريف بكتابه، وفي المبحث الثاني عرض مفهوم الاتجاه الإشاري، والمبحث الثالث الاتجاه الإشاري عند ابن أبي جمرة، والمبحث الرابع مسالك الاتجاه الإشاري عنده، ثم الذين استفادوا من ابن أبي جمرة في شرح صحيح الإمام البخاري.

الكلمات المفتاحية: ابن أبي جمرة، النص النبوي، الاتجاه الإشاري، صحيح البخاري.

The Connotative Tendency of Abi Jamrah in his Brief Explanation of *Sahih Al- Bukhari* An Exposition and Criticism

By: Nady Abdallah Mohammed Abdel- Majeed
Department of Osoul Al- Deen
Faculty of Islamic and Arabic Studies for Men in Cairo
Azhar University

Abstract

The connotative tendency of understanding the text of the prophetic tradition, deducting the general provision and the convenient benefits relies on interpreting the text of the prophetic tradition in a way that goes beyond its superficial meaning. This process seeks an implicit connotation which appears to the scholars who sincerely do their academic work for the sake of Almighty Allah. In addition, the interpretation of the prophetic tradition can combine both the explicit and implicit meanings of the text. Such tendency is in no controversy with the fundamentals of the Islamic Sharia since it is just engaged with hidden connotations that come to the mind of the scholars, and they embody the outcome of tangible efforts exerted by Hadith scholars who carefully considered and contemplated the prophetic traditions. Moreover, Imam Abi Jamrah is largely considered a pioneering figure of this tendency of Hadith interpretation with specific reference to his Brief Explanation of Sahih Al- Bukhari. In his explanation of every Hadith, Abi Jamrah was keen on finding a piece of wisdom, a clue and a benefit to perform internal reformation and refine behaviour relying on the fact that the apparent meanings are deducted from the text of the prophetic tradition. Accordingly, this research is a vigorous attempt to highlight the connotative tendency of understanding the prophetic text. Hence, it includes four chapters and a conclusion. The first chapter introduces a biography of Imam Abi Jamrah and his writings whereas the second one displays the concept of connotative tendency. As for the third chapter, it studies the connotative tendency of Abi Jamrah while the fourth chapter continues to discuss the same concept and those who benefited from the interpretations of Abi Jamrah in his Brief Explanation of Sahih Al- Bukhari. Finally, the conclusion sums up the findings of the research as well as the recommendations.

Keywords: Ibn Abi Jamrah, the prophetic text, the connotative tendency, Sahih Al- Bukhari.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، اعترافاً بمنته، وشكراً لنعمته، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعترته، والأخير من ذريته، ربنا نسألك أن تصلي وتسلم على سيدنا محمد، صلاة تفتح لنا بها أبواب الرضا واليسير، وتغلق بها أبواب الشر والتعسير، وتكون لنا بها ولياً ونصيراً، إنك نعم المولي ونعم النصير.

أما بعد

فإن الاتجاه الإشاري في فهم النص النبوي، من الاتجاهات السائدة في شروح الحديث الشريف، وتفسير القرآن الكريم، وقد كان الإمام ابن أبي جمرة - رحمه الله - من رواد هذا الاتجاه، حيث ظهرت إشارات البديعة، ولطائفه الحكيمة، في كتابه القيم (بهجة النفوس) وهو شرح لمختصر صحيح البخاري، الذي سماه ابن أبي جمرة "جمع النهاية في بدء الخير والغاية" ويعرف بـ "مختصر ابن أبي جمرة" وهو نحو ثلاث مائة حديث، حذف أسانيد أحاديث صحيح البخاري ما عدا راوي الحديث؛ ليسهل حفظها، قال رحمه الله في مقدمة مختصره هذا مبينا سبب اختصاره له: "ورأيت الهمم قد قصرت عن حفظها مع كثرة كتبها من أجل أسانيدها... فرأيت أن آخذ من أصح كتبها كتاباً أختصر منه أحاديث بحسب الحاجة إليها، وأختصر أسانيد ما عدا راوي الحديث، فلا بد منه، فيسهل حفظها، وتكثر الفائدة فيها - إن شاء الله تعالى - فوقع لي أن يكون كتاب البخاري؛ لكونه من أصحها، ولكونه رحمه الله كان من الصالحين، وكان مجاب الدعوة، ودعا لقارئه.

والمأمل في هذا الكتاب القيم، يقتطف منه جواهر من الحكم والدروس والعبر، والإشارات النورانية، التي تتفق مع أصول الشريعة الغراء من الكتاب والسنة، وهي تدل على مكانة هذا العالم الجليل، حيث أفاض الله عليه من علمه، وفتح عليه من أسرارها، وأصبح كتابه مصدراً أساسياً من مصادر شروح السنة المطهرة لمن أتى بعده.

هذا وقد جاء البحث في مقدمة وتمهيد وأربع مباحث:

التمهيد: بينت فيه مفهوم الاتجاه الإشاري.

- المبحث الأول: التعريف بابن أبي جمرة وكتابه (بهجة النفوس) وتأثر العلماء به.
- المبحث الثاني: الاتجاه الإشاري عند ابن أبي جمرة.
- المبحث الثالث: مسالك الاتجاه الإشاري عند ابن أبي جمرة.
- المبحث الرابع: الصناعة الحديثية عند ابن أبي جمرة.
- ثم الخاتمة: وقد ذكرت فيها أهم ما توصلت إليه من نتائج.

الباحث

تمهيد

مفهوم الاتجاه الإشاري في فهم النص النبوي

مصطلح الاتجاه الإشاري مركب من كلمتين، الأولى: الاتجاه، والثانية: الإشاري، ولا بد من معرفة معنى كل واحدة ليتم بذلك معرفة معنى المصطلح المركب.

الاتجاه لغة: مصدر اتجه، وهو بمعنى الطريق والسبيل.

واصطلاحاً: تهيؤ عقلي لمعالجة تجربة أو موقف من المواقف تصحبه عادة استجابة خاصة، ميل، نزعه^(١).

الإشاري لغة: من الإشارة، وهي العلامة والإيماء^(٢).

واصطلاحاً: أن يستفاد من الكلام دون أن يكون موضوعاً له، أو هو العمل بما ثبت بنظم الكلام لغة، لكنه غير مقصود، ولا سيق له النص^(٣).

ويعرّف الاتجاه الإشاري أو التفسير الإشاري اصطلاحاً: بأنه تأويل القرآن الكريم على خلاف ما يظهر منها، بمقتضى إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك، ويمكن التطبيق بينها وبين الظاهر المراد^(٤).

ومن المعلوم أن الخائضين في المعاني الإشارية هم المتقون، الصافية قلوبهم من الانحرافات العقديّة والفكرية المتشوقون لعطاء الله تعالى، فيفتح الله على قلوب أوليائه، المتقين وعباده المخلصين، بسبب طهارة قلوبهم ما لا يفتح به على غيرهم، مع الأخذ في الاعتبار أن هذه الإشارات تضمن في محتواها سلامة الشرح، وتقارب معانيه، وإظهار مراد الحديث، وانسجام أحكامه توافقاً مع مقاصد القرآن الكريم، والسنة المطهرة، فالشرح الحديثي ما هو إلا جانب لبيان العمل بالسنة، مما يكسبه أهمية بالغة، وتترتب عليه ضوابط تحرره من الانزلاق في التأويلات الباطلة المناهضة لمقاصد الشريعة.

(١). معجم اللغة العربية المعاصرة مادة اتجاه.

(٢). لسان العرب لابن منظور (٤/٤٣٤).

(٣). لسان العرب لابن منظور (٤/٤٣٤).

(٤). التفسير والمفسرون (٢/٣٦١).

وتوجد أهمية بالغة في شرح الحديث النبوي بوجه عام، حيث يقف المتأمل في الأحاديث النبوية على معانيه ومراميه.

عن مصعب بن عبد الله الزبيري قال: سمعت مالك بن أنس وقد قال لابني أخته أبي بكر وإسماعيل: "أراكما تحبان هذا الشأن، وتطلبانه" يعني الحديث، قال: نعم، قال: "إن أحببنا أن تنتفعا وينفع الله بكما فأقلا منه، وتفقهها"^(١).

وقال الخطيب البغدادي^(٢):

وليعلم أن الإكثار من كتب الحديث وروايته لا يصير بها الرجل فقيهاً، إنما يتفقه باستنباط معانيه وإنعام التفكير فيه.

وقال ابن الصلاح^(٣).

لا ينبغي لطالب الحديث أن يقتصر على سماع الحديث، وكتبه دون معرفته وفهمه، فيكون قد أتعب نفسه من غير أن يظفر بطائل، وبغير أن يحصل في عداد أهل الحديث. ويعتبر الاتجاه الإشاري في فهم الحديث الشريف هو اتجاه يقوم على تأويل الحديث النبوي الشريف على خلاف ظاهره لإشارات خفية تتجلى لأصحاب المقامات العالية من علماء هذه الأمة، مع إمكان الجمع بينها وبين المعنى الظاهر المراد من الحديث.

مع الأخذ في الاعتبار أن هذه الإشارات والمعاني اللطيفة المستنبطة من الحديث النبوي الشريف لا يخالف أصول الشريعة، وإنما هو إشارات خفية ترد بمناسبة التأمل والنظر في الحديث النبوي الشريف.

ويمكن القول: أن هذه الإشارات هي فيوضات ربانية، تفيض على قلوب المخلصين من صالحى هذه الأمة، كما جاء في قول الله تعالى: "فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا"^(٤).

(١). المحدث الفاضل، ص. ٢٤١-٢٤٢.

(٢). الفقيه والمتفقه (١٠٩/٢).

(٣). علوم الحديث، ص. ٢٥٠.

(٤). سورة الكهف آية: ٦٥.

وروى الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة، قال: قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَقَدْ كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ رِجَالٌ يُكَلِّمُونَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْ أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ فَعُمِّرْ). قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: مِنْ نَبِيِّ وَلَا مُحَدَّثٍ^(١).

قوله (أناس مُحدثون) قال القرطبي: الرواية بفتح الدال اسم مفعول جمع (محدث) بالفتح أي ملهم أو صادق الظن وهو من ألقى في نفسه شيء على وجه الإلهام والمكاشفة من الملأ الأعلى أو من يجري الصواب على لسانه بلا قصد أو تكلمه الملائكة بلا نبوة أو من إذا رأى رأيا أو ظن ظنا أصاب كأنه حدث به وألقى في روعه من عالم الملكوت فيظهر على نحو ما وقع له وهذه كرامة يكرم الله بها من شاء من صالح عباده وهذه منزلة جليلة من منازل الأولياء^(٢).

ومن أشهر الأمثلة التطبيقية عند السلف؛ ما ورد من تفسير عمر وابن عباس -رضي الله عنهم- لسورة النصر؛ فقد أورد البخاري بسنده عن ابن عباس، قال: "كان عمر يُدْخِلُنِي مع أشياخ بدرٍ، فقال بعضهم: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا الْفَتَى معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنه ممَّنْ قد علمتم. قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم، قال: وما رأيتك دعاني يومئذ إلا ليربهم مَّيَّ، فقال: ما تقولون في: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا} [النصر: ١، ٢] حتى ختم السورة؟ فقال بعضهم: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا. وقال بعضهم: لا ندري، أو لم يَقُلْ بعضهم شيئا. فقال لي: يا ابن عباس، أكَذَلِكَ قَوْلُكَ؟ قلت: لا. قال: فما تقول؟ قلت: هو أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَعْلَمَهُ اللَّهُ له: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (فتح مكة)، فذاك علامة أَجَلِكَ؛ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا. قال عمر: ما أعلمُ منها إلا ما تعلم" ^(٣).

قال ابن حجر في شرحه لهذا الحديث: "وفيه جواز تأويل القرآن بما يُفْهَمُ من الإشارات، وإنما يَتَمَكَّنُ من ذلك مَنْ رَسَخَتْ قَدَمُهُ فِي الْعِلْمِ؛ وَلِهَذَا قَالَ عَلِيُّ -رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ-: أَوْ

(١). أخرجه البخاري في صحيحه ك المناقب باب مناقب عمر رضي الله عنه (٣٦٨٩).

(٢). فيض القدير (٥٠٧/٤).

(٣). أخرجه البخاري ك المغازي باب (٤٣٩٤).

فَهَمَّا يُؤْتِيهِ اللَّهُ رَجُلًا فِي الْقُرْآنِ" (١).

قوله صلى الله عليه وسلم (لا تدخل الملائكة بيتا في كلب أو صورة) (٢) الحديث في منع الكلب والصورة الملائكة من دخول البيت، لكن أرباب السلوك يرون فيه إشارة إلى أن معرفة الله لا تدخل قلبا امتلاً بكلاب الشهوة وانطبع بصور الأكوان، قال ابن القيم (٣): (وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول في قول النبي: (لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة) إذا كانت الملائكة المخلوقون يمنعها الكلب والصورة عن دخول البيت، فكيف تلج معرفة الله، ومحبتة وحلاوة ذكره، والأنس بقربه في قلب ممتلى بكلاب الشهوات وصورها؟).

وقبله قال الإمام الغزالي - رحمه - في حديث النبي صلى الله عليه وسلم (لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة). فقال: " والقلب بيت هو منزل الملائكة، ومهبط أثرهم، ومحل استقرارهم، والصفات الرديئة مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب وأخواتها كلاب نابحة، فأنى تدخله الملائكة وهو مشحون بالكلاب، ونور العلم لا يقذفه الله تعالى في القلب إلا بواسطة الملائكة، وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء، وهكذا ما يرسل من رحمة العلوم إلى القلوب إنما تتولاها الملائكة الموكلون بها، وهم المقدسون المطهرون المبرؤون عن الصفات المذمومات، فلا يلاحظون إلا طيباً، ولا يعمرن بما عندهم من خزائن رحمة الله إلا طيباً طاهراً" (٤). فنرى هنا أن الإمام الغزالي - رحمه الله - لم ينف المعنى الظاهر المراد في الحديث، وإنما نبه به إلى غيره على جهة التمثيل.

(١). فتح الباري، ابن حجر، ط. دارالمعرفة - بيروت، (٧٣٦ / ٨).

(٢) - أخرجه البخاري ك بدء الخلق باب إذا قال أحدكم: أمين والملائكة في السماء أمين فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه (٣٢٢٥) ومسلم ك اللباس والزينة باب لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة (٢١٠٤).

(٣). مدارج السالكين (١٠٦/١).

(٤). إحياء علوم الدين (٤٩/١).

وقد سمي ابن العربي المعافري أصحاب هذا المسلك "أصحاب الإشارة" فقال في حكاية ما استنبطوه من الإشارات من الحديث السابق: "قال أصحاب الإشارة قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة" فبين النبي صلى الله عليه وسلم أن الملائكة تنزه عن دخول بيت فيه كلب من الحيوان أو صورة من التماثيل. وهذا حث على إبعادها وحض على تفريغ البيوت منها، لتتمكن الملائكة من الدخول إلى البيوت، لما أمرت به فيه من إحصاء أعمال واحتياط على بدن أو مال أو بركة تنزلها على ذي المنزل أو رسالة تؤديها إليه إذا كان لها صاحباً... وبعد تقرير هذا فهو تنبيه على تطهير القلوب عن الحسد والحقد، والغضب والبخل، والخديعة والمكر، وسائر الصفات الذميمة، فإنها تمنع من الأعمال الصالحة بالتنفير لها والإقصاء لأسبابها ما تفعله الكلاب في منازلها، والقلوب منزل للملائكة ومعدن الإيمان ومحل التقوى، وهي بين إصبعين من أصابع الرحمن، وذلك عبارة عن الملائكة المدبرة لها. وإذا طهرت المنازل الحسية عن أجسام الكلاب الحسية، فتزويه القلوب عن صفات المكروه أولى. فنقر الحديث على ظاهره ونعبر منه على طريق الاعتبار إلى هذا المعنى المشار إليه فنلحقه به ونكون عاملين بالوجهين، موفين حق اللفظ في المعنيين وهذا حكم الاعتبار والإلحاق"^(١). فبين أن المعنى الأصلي عندهم معتبر معمول به مع اعتبار ما هو مثله مما يتصل بأعمال القلوب. قوله صلى الله عليه وسلم (لا صلاة بغير طهور) الحديث في عدم صحة الصلاة بغير طهارة الظاهر، لكن أهل السلوك يرون فيه إشارة إلى أن عدم طهارة الباطن مانعة من قبول الصلاة من باب أولى قال ابن القيم^(٢): (طهارة الثوب الطاهر والبدن إذا كانت شرطاً في صحة الصلاة والاعتداد بها، فإذا أخل بها كانت فاسدة، فكيف إذا كان القلب نجساً ولم يطهره صاحبه؟ فكيف يعتد له بصلاته وإن أسقطت القضاء؟ وهل طهارة الظاهر إلا تكميل لطهارة الباطن).

والاتجاه الإشاري له نظيره أيضاً في تفسير القرآن الكريم وقد عرّفه الشيخ الزرقاني في

(١). العواصم من القواصم ص ١٩٩-٢٠٠.

(٢). مدارج السالكين (٤٠٦/٢).

"مناهل العرفان"^(١) بقوله: [هو تَأْوِيلُ الْقُرْآنِ بِغَيْرِ ظَاهِرِهِ، لِإِشَارَةِ خَفِيَّةٍ تَظْهَرُ لِأَرْبَابِ السُّلُوكِ وَالتَّصَوُّفِ، وَيُمْكِنُ الْجَمْعُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الظَّاهِرِ الْمُرَادِ أَيْضًا] أهـ.

وفي معنى التفسير الإشاري يقول العلامة ابن القيم^(٢): [الإشارات: هي المعاني التي تشير إلى الحقيقة من بُعد ومن وراء حجاب، وهي تارة تكون من مسموع، وتارة تكون من مرئي، وتارة تكون من معقول، وقد تكون من الحواس كلها، فالإشارات: من جنس الأدلة والأعلام، وسببها: صفاء يحصل بالجمعية، فيلطف به الحس والذهن فيستيقظ لإدراك أمور لطيفة لا يكشف حس غيره وفهمه عن إدراكها، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: الصحيح منها: ما يدل عليه اللفظ بإشارته من باب قياس الأولى] أهـ.

ولابن تيمية إشارات في قوله " لا يمسه إلا المطهرون" قال في قوله تعالى (لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) (الواقعة: ٧٩): إشارة إلى أن ورقه إذا كان لا يمسه إلا المطهرون فمعانيه لا يهتدي بها إلا القلوب الطاهرة وأما القلوب المنجسة فلا تمس حقائقه^(٣).

وقرر ابن تيمية أن الله تعالى يفتح على قلوب عباده من المعاني والفتوحات في فهم كتاب الله تعالى ما لا يحصل لغيرهم، لأجل طهارة قلوبهم ونقاء سريرتهم^(٤)، قال الله تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ ثَبَاتًا. وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِن لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا. وَلَهْدَيْنَاهُم صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} [النساء: ٦٦ - ٦٨].

فقال — رحمه الله —: " لا ريب أن الله يفتح على قلوب أوليائه المتقين، وعباده الصالحين، بسبب طهارة قلوبهم مما يكرهه، واتباعهم ما يحبه ما لا يفتح به على غيرهم"^(٥).

قال الإمام الغزالي: وإنما ينكشف للراسخين في العلم من أسراره بقدر غزارة علومهم وصفاء قلوبهم وتوفر دواعيهم على التدبير وتجردهم للطلب، ويكون لكل واحد حد في الترتي

(١). مناهل العرفان (٢/٥٦)

(٢). مدارج السالكين (٢/٣٨٩)

(٣). جامع المسائل (٧٠).

(٤). الفتاوى (١٠/٤).

(٥). الفتاوى (١٣/٢٤٥).

إلى درجة أعلى منه، فأما الاستيفاء فلا مطمع فيه ولو كان البحر مداداً والأشجار أقلاماً فأسرار كلمات الله لا نهاية لها فتنفد الأبحر قبل أن تنفد كلمات الله عز وجل، فمن هذا الوجه تتفاوت الخلق في الفهم بعد الاشتراك في معرفة ظاهر التفسير وظاهر التفسير لا يغي عنه، ومثاله فهم بعض أرباب القلوب من قوله ﷺ في سجوده (أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)^(١). أنه قيل له اسجد واقترب فوجد القرب في السجود، فنظر إلى الصفات فاستعاذ ببعضها من بعض؛ فإن الرضا والسخط وصفان، ثم زاد قربه فاندرج القرب الأول فيه فرقي إلى الذات فقال "أعوذ بك منك" ثم زاد قربه بما استحيا به من الاستعاذة على بساط القرب فالتجأ إلى الثناء فأثنى بقوله "لا أحصي ثناء عليك" ثم علم أن ذلك قصور فقال "أنت كما أثنيت على نفسك" فهذه خواطر تفتح لأرباب القلوب، ثم لها أغوار وراء هذا وهو فهم معنى القرب واختصاصه بالسجود، ومعنى الاستعاذة من صفة بصفة، ومنه به، وأسرار ذلك كثيرة، ولا يدل تفسير ظاهر عليه وليس اللفظ هو مناقضاً لظاهر التفسير بل هو استكمال له ووصول إلى لبابه عن ظاهره فهذا ما نورده لفهم المعاني الباطنة لا ما يناقض الظاهر والله أعلم^(٢).

وقد ذكر العلماء شروطاً لقبول التفسير الإشاري، ومعنى كونه مقبولاً: عدم رفضه، لا وجوب الأخذ به، أمّا عدم رفضه، فلأنه غير منافٍ للظاهر، ولا بالغ مبلغ التعسف، وليس له ما ينافيه أو يعارضه من الأدلة الشرعية، وأمّا عدم وجوب الأخذ به؛ فلأنه من قبيل الوجدانيات، والوجدانيات لا تقوم على دليل ولا تستند إلى برهان، وإنما هي أمر يجده الصوفي من نفسه، وسرّ بينه وبين ربه، فله أن يأخذ به ويعمل على مقتضاه، دون أن يلزم به أحداً من الناس سواه.

وهذه الشروط هي كما في "مناهل العرفان"^(٣)

(١). أخرجه مسلم في صحيحه ك: الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود ح ٤٨٦

(٢). إحياء علوم الدين (٢٩٣/١).

(٣). مناهل العرفان (٨١/٢) بتصرف.

١. ألا يتنافى وما يظهر من معنى النظم الكريم.
 ٢. ألا يدعى أنه المراد وحده دون الظاهر.
 - ٣- ألا يكون تأويلاً بعيداً سَخِيْفًا؛ كتفسير بعضهم قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. بجعل كلمة ﴿لَمَعَ﴾ فعلاً ماضياً، وكلمة ﴿المحسين﴾ مفعوله.
 ٤. ألا يكون له معارض شرعي أو عقلي.
 ٥. أن يكون له شاهد شرعي يؤيده.
- وللإشارات أنواع ذكرها الإمام الطاهر بن عاشور في تفسيره "التحرير والتنوير" (١) حيث قال: [عندي أن هذه الإشارات لا تعدو واحداً من ثلاثة أنحاء: الأول: ما كان يجري فيه معنى الآية مجرى التمثيل لحال شبيهه بذلك المعنى؛ كما يقولون مثلاً: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [البقرة: ١١٤] أنه إشارة للقلوب؛ لأنها مواضع الخضوع لله تعالى، إذ بها يعرف، فتسجد له القلوب بفناء النفوس. ومنعها من ذكره هو الحيلولة بينها وبين المعارف اللدنية، ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ بتكديرها بالتعصبات وغلبة الهوى، فهذا يشبه ضرب المثل لحال مَنْ لا يزي نفسه بالمعرفة ويمنع قلبه أن تدخله صفات الكمال الناشئة عنها؛ بحال مانع المساجد أن يذكر فيها اسم الله، وذكر الآية عند تلك الحالة كالنطق بلفظ الممثل...، الثاني: ما كان من نحو التفاضل، فقد يكون للكلمة معنى يسبق من صورتها إلى السمع هو غير معناها المراد، وذلك من باب انصراف ذهن السامع إلى ما هو المهم عنده، والذي يجول في خاطره، وهذا كمن قال في قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]: "مَنْ ذَلَّ ذِي" -إشارة للنفس- يصير من المقربين الشفعاء، فهذا يأخذ صدى موقع الكلام في السمع ويتأوله على ما شغل به قلبه، ورأيت الشيخ محيي الدين يُسَيِّي هذا النوع سماعاً، ولقد أبدع.
- الثالث: عبّر ومواعظ، وشأن أهل النفوس اليقظى أن ينتفعوا من كل شيء ويأخذوا

الحكمة حيث وجدوها، فما ظنك بهم إذا قرؤوا القرآن وتدبروه فاتعظوا بمواعظه، فإذا أخذوا من قوله تعالى: ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً﴾ [المزمل: ١٦] اقتبسوا أن القلب الذي لم يمثل رسول المعارف العليا تكون عاقبته وبالأ...، وكل إشارة خرجت عن حدِّ هذه الثلاثة الأحوال إلى ما عداها فهي تقترب إلى قول الباطنية رويدًا رويدًا إلى أن تبلغ عين مقالاتهم] اهـ.

المبحث الأول

التعريف بابن أبي جمرة وكتابه (بهجة النفوس) وتأثر العلماء به

أولاً: التعريف بابن أبي جمرة

اسمه: اختلفت أقوال العلماء في تسمية ابن أبي جمرة، ف قيل: اسمه عبد الله بن سعد بن أبي جمرة^(١)، وقيل: اسمه أبو محمد بن أبي حمزة^(٢)، وقد يكون هذا تصحيفاً حيث قلبت الجيم حاءً وقلبت الزاي راءً، وقيل: اسمه عبد الله بن سعد بن أحمد بن أبي جمرة^(٣)، وقيل: سعيد بن عبد الله بن أبي جمرة^(٤)، والصواب: أبو محمد عبد الله بن سعد بن سعيد بن أبي جمرة الأزدي^(٥) الأندلسي^(٦)، وهو أنصاري خزرجي من ذرية سيد الخزرج سعد بن عبادة الأنصاري رضي الله عنه^(٧). فهو الخزرجي نسباً، المالكي مذهباً، نشأ في مدينة (مرسية)^(٨)، ثم سافر إلى تونس، وبعدها توجه إلى الديار المصرية.

(١). هدية العارفين (٤٦٢/٥).

(٢). البداية والنهاية ()

(٣). طبقات الأولياء (٤٣٩).

(٤). الطبقات الكبرى للشعراني (٢٠٣/١).

(٥) — الأزدي: نسبة إلى أزد شنوءة بفتح الألف وسكون الزاي وكسر الدال المهملة، وهو أزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ. والأزد من أعظم الأحياء وأمدتها فروعاً، وقد قسمت إلى ثلاثة أقسام: أحدها أزد شنوءة، بإضافة أزد إلى شنوءة وهم بن نصر بن الأزد، والثاني أزد السراة، بإضافة أزد إلى السراة وهو موضع بأطراف اليمن نزلت به فرقة من الأزد فعرفوا به. والثالث أزد عمان، بإضافة أزد إلى عمان نزلها فرقة منه فعرفوا بها. الأنساب (٨٥/١) الإكمال لابن ماكولا (١٥٣/١).

(٦). الأعلام للزركلي (٨٩/٤).

(٧). حاشية الشنواني على مختصر ابن أبي جمرة (ص ٨).

(٨) — مرسية: بضم أوله وسكون الراء وكسر السين المهملة وياء مفتوحة خفيفة وهاء. وهي من الإقليم الرابع، القاعدة الثامنة من القواعد الشرقية للأندلس، مدينة إسلامية محدثة بنيت في أيام الأمويين الأندلسيين، وهي بإشبيلية غرب الأندلس بكثرة المنازه والبساتين، أعدل هواء أطيب أرضاً، وأهلها أحسن ألواناً وأجمل صوراً، و أفصح لغةً. معجم البلدان. يا قوت الحموي. ج ٥ ص ١٠٧. المعجب في تلخيص

كنيته: كان يكنى .رحمه الله .بأبي محمد^(١).

لقبه: لُقّب الإمام ابن أبي جمرة - رحمه الله - بألقاب عديدة، لما كان يتصف به من العبادة والزهد والورع، وحب الله وحب رسوله صلى الله عليه وسلم والصالحين، ولما كان يتصف به من المكانة العلمية الفائقة، شهد بذلك أقرانه من العلماء، وتلاميذه.

فلقب بالإمام القدورة الرباني^(٢).

والإمام العالم، والبارع الناسك^(٣).

ولقب بالعارف بالله^(٤).

ولقب بالحافظ^(٥)، وهذه رتبة حديثة، تدل على مكانته في علم الحديث الشريف.

ثناء العلماء عليه:

أثنى الأئمة على الحافظ ابن أبي جمرة .رحمه الله .بأوصاف عديدة:

فقال في حقه محمد بن مخلوف: " المحدث الراوية القدوة المقرئ العمدة الولي الصالح الزاهد العارف بالله له كرامات جمعت في كراريس^(٦) .

ووصفه أحمد بابا التنبكتي —: " الولي القدوة العارف بالله الزاهد الصالح الإمام العلامة المقرئ المشهور، مؤلف مختصر البخاري وشرحه بهجة النفوس في سفرين، له كرامات عديدة رأيتها مجموعة في كراريس مع أخباره عن أكابر أرباب القلوب، وناهيك عن حاله وكراماته ما ذكر أنه قال يوماً: بحمد الله تعالى أنه لم يعص الله قط^(٧) .

أخبار المغرب. عبد الواحد المراكشي. ص ٣٠ - الحلل السندسية في الأخبار والآثار. الأمير شكيب أرسلان. ج ٣ ص ٢٩٤ ...

(١). البداية والنهاية (٣٤٦/١٣).

(٢). نيل الابتهاج (٢٣٠/١).

(٣). البداية والنهاية (٢٤٦/١٣).

(٤). شجرة النور الزكية (١٩٩).

(٥). هدية العارفين (٤٦٢/٥).

(٦). شجرة النور الزكية (٢٨٥/ ١).

(٧). نيل الابتهاج (ص: ٢١٦).

وقال عنه الإمام ابن كثير في كتاب البداية والنهاية: " كان قوالا بالحق أمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر^(١) .

وقال عنه الزركلي: " من العلماء بالحديث^(٢) .

وقال عنه الشيخ عمر رضا كحالة: " كان مؤرخا ومفسرا للقرآن ومحدث^(٣) .

وقال عنه تلميذه ابن الحاج: " كَثِيرًا مَا أَسْمَعُ سَيِّدِي الشَّيْخَ العُمْدَةَ العَالِمَ العَامِلَ المُحَقِّقَ القُدْوَةَ أَبَا مُحَمَّدٍ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ أَبِي جَمْرَةَ^(٤) .

آثاره العلمية: عرف عن ابن أبي جمرة اهتمامه الشديد، وعنايته الفائقة بالعلم والتعلم، وتمسكه بالأثر والحديث، فقد اشتغل بالحديث واعتنى به، وله مصنفات كثيرة منها: جمع النهاية، في بدء الخير والغاية مختصر الجامع الصحيح للبخاري.

وشرحه المسمى (بهجة النفوس وتحليها بما لها وما عليها).

والمرائي الحسان الدالة على فضل شرح مختصر البخاري (بهجة النفوس وتحليها بما لها وما عليها).

وكتاب في طبقات الحكماء، وتفسير القرآن الكريم^(٥).

وله أيضاً: منظومة في "ختمة البخاري" توجد منها نسخة، تحت رقم: (١٠٣٢٩) في مكتبة عبد الله گنون. ومنها نسخ بالخرانة الحسنية: ٩٠٧٣٠٩.٧٣٠٩.٩٥٥٣.٩٥٥٩، و"شرح حديث عبادة بن الصامت"، وشرح حديث الإسراء، وشرح حديث الإفك^(٦).

قال صاحب كشف الظنون: "شرح حديث: "عبادة بن الصامت" أفردته بالتدوين، بعد أن أودعه في كتابه: "بهجة النفوس"، وهو: قوله - عليه الصلاة والسلام: "بايعوني على أن لا

(١). البداية والنهاية (١١/ ٢٠١). ١٤٠٧. هـ ١٩٨٦ م

(٢). الأعلام للزركلي (٤/ ٨٩).

(٣). معجم المؤلفين (٦/ ٥٧)، الأعلام للزركلي (٤/ ٨٩)

(٤). المدخل لابن الحاج (١/ ٦).

(٥). معجم المؤلفين (٦/ ٥٧)، هدية العارفين (١/ ٤٦٢).

(٦). هدية العارفين (١/ ٤٦٢)، كشف الظنون (٢/ ١٠٤٠)

تشركوا بالله شيئاً^(١). أوله: "الحمد لله الذي أطلع من السماء لفظ خير بريته شموسا... إلخ".

وله أيضاً: شرح "لحديث الإفك"، أفردته بعد ذكره في بهجة النفوس. أوله: "الحمد لله الذي أظهر بمقتضى التنزيل تطهير من قد اختاره".

وله شرح: "حديث الإسراء"، أوله: "الحمد لله الذي أظهر من سر قدرته بخرق عاداته... إلخ"، أفردته بالتدوين، بعد أن ذكره في كتابه: (بهجة النفوس)^(٢).

وفاته: اختلف العلماء في تأريخ سنة وفاته، ففي هدية العارفين توفي سنة ٦٧٥هـ^(٣). وفي الأعلام توفي سنة ٦٩٥هـ^(٤). وفي شجرة النور توفي سنة ٦٩٩هـ^(٥)، وفي نيل الابتهاج توفي سنة ٦٩٩هـ^(٦).

ثانياً: التعريف بـ "بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها" شرح "جمع النهاية في بدء الخير والغاية" مختصر صحيح البخاري

بما أن كتاب "بهجة النفوس" هو شرح لمختصر صحيح البخاري، الذي سماه ابن أبي جمرة "جمع النهاية في بدء الخير والغاية" ويعرف بـ "مختصر ابن أبي جمرة" وهو نحو ثلاث مائة حديث، حذف أسانيد أحاديث صحيح البخاري ما عدا راوي الحديث؛ ليسهل حفظها، قال رحمه الله في مقدمة مختصره هذا مبينا سبب اختصاره له: "ورأيت الهمم قد قصرت عن حفظها مع كثرة كتبها من أجل أسانيدها... فرأيت أن آخذ من أصح كتبها كتاباً أختصر منه أحاديث بحسب الحاجة إليها، وأختصر أسانيدها ما عدا راوي الحديث، فلا بد منه، فيسهل حفظها، وتكثر الفائدة فيها - إن شاء الله تعالى - فوقع لي أن يكون كتاب البخاري؛

(١). أخرجه البخاري في كتاب الحدود باب الحدود كفارة رقم: (٦٧٨٣).

(٢). كشف الظنون (٢ / ١٠٤٠).

(٣). هدية العارفين (١ / ٢٤٠).

(٤). الأعلام (٢ / ١٣٦).

(٥). شجرة النور (١ / ٢٨٥).

(٦). نيل الابتهاج (ص: ٢١٦).

لكونه من أصحابها، ولكونه رحمه الله كان من الصالحين، وكان مجاب الدعوة، ودعا لقارئه. وقد قال: لي - من لقيته من القضاة الذين كان لهم المعرفة والرحلة، عمن لقي من السادة المقر لهم بالفضل - (إن كتاب البخاري ما قرئ في وقت شدة إلا فرجت، ولا ركب في مركب ففرقت قط) فرغبت مع بركة الحديث في تلك البركات، لما في القلوب من الصدا، فلعله بفضل الله أن يكشف عما بها، وأن يفرج عنها شدائد الأهواء التي تراكمت عليها، ولعل بحمل تلك الأحاديث الجليلة تعفى من الغرق في بحور البدع والآثام، فلما كملت بحسب ما وفق الله إليه... فإذا هي ثلاث مائة حديث غير بضع... فسميته بمقتضى وضعه: "جمع النهاية في بدء الخير والغاية" ولم أفرق بينها بتبويب، رجاء أن يتمم الله لي ولكل من قرأه أو سمعه بدء الخير بغايته^(١).

ولما وضع رحمه الله هذا المختصر رأى أن يجعل عليه شرحا، قال رحمه الله: " فلما كان من متضمن ما أودعنا برنامج الكتاب الذي سميناه: " جمع النهاية في بدء الخير والغاية"، إشارة إلى تكثير فوائد أحاديثه، وتعميم محاسنه، وكنت عزمت على تبينها، لأن أتبع خيرا بخير، فيكون ذلك أصله، وهذا ثمره وفننه، فإن كمال فائدة الثمار، باجتناء الثمرة، ويعرف مقتنيه قدر الفائدة، بل الفوائد التي فيه^(٢)، وسماه: "بهجة النفوس وتحليها بمعرفة مالها وما عليها"، يعد هذا الكتاب من أهم كتب الحديث الشريف في تراثنا الإسلامي العريق، فقد عمد مؤلفه عبد الله بن أبي جمرة الأندلسي إلى تأليف كتاب (جمع النهاية في بدء الخير والغاية) أودع فيه مئتين وستة وتسعين حديثا اختارها من صحيح البخاري في مواضيع شتى. ثم ألف كتابه (بهجة النفوس) في شرح هذه الأحاديث المختارة شرحا مستفيضا يتأسس على الأداء اللغوي للحديث الشريف، وينطلق بعد إلى ما يتضمنه من إشارات فقهية وتشريعية وسلوكية، وقد بين في مقدمة شرحه هذا ما تناوله فيه قائلا: "هذا الكتاب يحتوي على جمل من درر فرائض الشريعة، وسننها ورغائبها وآدابها وأحكامها، والإشارة إلى الحقيقة بحقيقتها، والإشارة إلى كيفية الجمع بين الحقيقة والشريعة، وتبيين

(١). مختصر ابن أبي جمرة (ص: ٢٧).

(٢). بهجة النفوس (٢/١).

الطرق الناجية التي أشار عليه السلام إليها، والإشارة إلى بيان أضرارها، والتحذير عنها، وربما استدلت على بعض الوجوه التي ظهرت من الحديث بأي وبأحاديث تناسبها وتقويها؛ فمنها باللفظ ومنها بالمعنى، وأتبع ذلك بحكايات ليشحذ الفهم بها وليتبين بها المعنى، وربما أشرت في بعض المواضع إلى شيء من توبيخ النفس على غفلتها لعلها تنتهي عن غيها، وأودعت فيه شيئاً من بيان طريقة الصحابة وآدابها، وما يستنبط من حسن عباراتهم، وحرصهم في نقلهم، وحسن مخاطبتهم، وما يستنبط من ذلك من آداب الشريعة إذا تعرض لفظ الحديث لشيء من ذلك؛ لأنه لا ينبغي أن يغفل عن شيء من ذلك؛ لأنهم هم الصفوة المقربون والخيرة المرفعون^(١).

وقد ختم الكتاب بالرؤى التي رآها المؤلف عند شرحه لأحاديث البخاري، وهي سبعون رؤية سماها "المرائي الحسان" أي: ما رؤي من الرؤى النبوية المتعلقة بشرحه على البخاري. والحقيقة أن هذا الكتاب: هو كتاب نفيس سارت به الركبان وانتشرت نسخه المخطوطة في شرق العالم وغربه، واعتمد عليه شراح البخاري بخاصة وشرح الحديث بعامة، حتى صار من أبرز المراجع الحديثية عند أهل العلم.

وقد طبعت البهجة مراراً، أولها بإشراف وتحقيق إسماعيل بن عبد الله المغربي الصاوي، ونشر مطبعة الصدق الخيرية بالقاهرة سنة ١٣٥٥ هـ.

وآخرها بتحقيق الدكتور بكرى شيخ أمين معتمداً على خمس نسخ خطية، وقامت بنشر هذه الطبعة دار العلم للملايين ببيروت سنة ١٩٩٧ م، في مجلدين كبيرين بلغ عدد صفحاتهما (١٧٧٨) صفحة.

ثانياً: تأثر العلماء وشرح الحديث بابن أبي جمرة.

كتاب "بهجة النفوس" لابن أبي جمرة، أحسن فيه غرسه، فأتى ثماره الطيبة، اقتطف منه مجموعة من العلماء الذين أتوا بعده من شراح صحيح البخاري، كابن الملقن في "التوضيح لشرح الجامع الصحيح" والحافظ ابن حجر في "الفتح"، والقسطلاني في "إرشاد الساري

(١). بهجة النفوس (٤/١).

لشرح صحيح البخاري" والعيبي في "عمدة القاري" ومحمد الفضيل الشيبهبي الإدريسي الزرهوني في "الفجر الساطع على الصحيح الجامع"، وغيرهم، وأذكر نموذجين من هذه الشروح التي استفاد أصحابها من ابن أبي جمرة:

أولاً: ابن حجر في الفتح

أبو الفضل، أحمد بن علي بن محمد العسقلاني، شهاب الدين، ولد سنة ٧٧٣ هـ، ولد ونشأ ومات بمصر وكان شافعي المذهب، وهو الحافظ الكبير، الإمام بمعرفة الحديث وعلله ورجاله، صاحب المصنفات القيّمة، أشهر كتبه: فتح الباري بشرح البخاري، وتهذيب التهذيب، ولسان الميزان وغيرها.

وقد استفاد ابن حجر ممن شرح الصحيح قبله، ونقل عنهم وتعمّقهم في مواضع، ومدح بعضهم، ونقد البعض:

فقال عن ابن بطال: ".. وهو ينادي عليه بقلّة الطالع والاستحضار لأحاديث الكتاب الذي شرحه"^(١)، وقال عنه أيضاً: " وخلطه المجسمة بالجهمية من أعجب ما يسمع"^(٢). وقال عن الداودي: " له عجائب في شرحه"^(٣).

وقال عن الكرمانى: " وإذا تكلم المرء في غير فنه أتى بهذه العجائب"^(٤).

أما حين ينقل عن ابن أبي جمرة، فكان الحافظ — رحمه الله — ينقل عنه بإقرار واحتفاء وتقدير مع الدعاء له بالنفع، فكان كثيراً ما يقول عقب ذكره: " نفع الله ببركته "، ونفع الله به"^(٥).

وكان يلقبه بالقدوة، فيقول في مواضع عدة: " ونقل القدوة أبو محمد بن أبي جمرة"^(٦).

(١). فتح الباري (٦/٥٨٥).

(٢). فتح الباري (١٣/٤١٦).

(٣). فتح الباري (١٢/٣٤٣).

(٤). فتح الباري (٣/٥٨٤).

(٥). فتح الباري (٢/٨٧)، (٣/٣٠٨)، (٨/٤٨٠). وغيرها من المواضع.

(٦). فتح الباري (١/٦٧).

نقل الحافظ ابن حجر — رحمه الله — عند شرحه لحديث (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان.....) قول ابن أبي جمرة، فقال: قال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة إنما عبر بالحلاوة لأن الله شبه الإيمان بالشجرة في قوله تعالى مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة فالكلمة هي كلمة الإخلاص والشجرة أصل الإيمان وأغصانها اتباع الأمر واجتناب النهي وورقها ما يهتم به المؤمن من الخير وثمرها عمل الطاعات وحلاوة الثمر جني الثمرة وغاية كماله تناهي نضج الثمرة وبه تظهر حلاوتها^(١). وله نقولات عديدة، في مواضع عدة.

ثانياً: ابن الملقن^(٢)

هو سراج الدين عمر بن علي بن أحمد الأنصاري الشافعي الأندلسي ثم المصري أبو حفص ابن النحوي، ولد سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة في ربيع الأول منها، وكان الملقن واسمه: عيسى زوج أمه فنسب إليه، ومات أبوه أبو الحسن وهو صغير، وأصله من الأندلس، وكان ابن الملقن عالماً بالحديث والفقه وتاريخ الرجال، وقد عُني في صغره بالتحصيل وتفقه بشيوخ عصره، ومهر في الفنون واعتني بالتصنيف قديماً، واشتهر بكثرة التصانيف حتي كان يقال إنها بلغت ثلاثمائة تصنيفاً، منها الإعلام بفوائد عمدة الأحكام، البدر المنير في تخريج أحاديث شرح الوجيز للرافعي، والتوضيح لشرح الجامع الصحيح، مات في سادس عشر ربيع الأول سنة أربعة وثمانمائة وقد جاوز الثمانين بسنة وشرحه (التوضيح لشرح الجامع الصحيح):

قال الحافظ ابن حجر عنه: "هو في أوائله أقعد منه في أواخره، بل هو من نصفه الباقي قليل الجدوي"^(٣).

وقد استفاد ابن الملقن من شرح ابن أبي جمرة، ونقل عنه في كتابه، وقال عن شرحه: واختصر قطعة من صحيح البخاري، وشرحها بشرح بديع، وفي آخرها تلك المرثي

(١). فتح الباري (١/٦٠).

(٢) — ترجمته: (أنباء الغمر (٢/٢١٦)، الدرر الكامنة (٢/٣٥٤)، الضوء اللامع (٦/١٠٠)، شذرات الذهب

(٧/٤٤)، الأعلام للزركلي (٥/٥٧)، معجم المؤلفين (٧/٢٩٧).

(٣) المجمع المؤسس (٢/٣١٥)

البديعة^(١).

يقول ابن الملقن عند شرحه لحديث (بدء الوحي)^(٢): وحين انقضى الكلام على حديث عائشة وجابر في بدء الوحي فلنختمه بدرر التقتطها من بحر سيدي أبي محمد عبد الله بن سعد بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي بلدي، والذي تغمدهما الله برحمته، وهو حديث اشتمل على أحكام وآداب وقواعد من أصول الدين والسلوك والترقي:

والدرة الأولى: أن الهداية منه لا بسبب؛ لأنه - صلى الله عليه وسلم - جبل على الخير ابتداء من غير أن يكون معه من يحرضه عليه فحبيب إليه الخلاء، لأنها عبادة.

الثانية: مداومة العبادة لتحنثه الليلي.

الثالثة: أن التبتل الكلي والانقطاع الدائم ليس من السنة، فإنه - صلى الله عليه وسلم - لم ينقطع في الغار وترك أهله.

الرابعة: أن العبادة لا تكون إلا مع إعطاء الحقوق الواجبة وتوفيتها؛ لأنه - صلى الله عليه وسلم - لم يكن يرجع إلى أهله إلا لإعطاء حقهم، فكذا غيره من الحقوق.

الخامسة: أن الرجل إذا كان صالحاً في نفسه تابعاً للسنة يرجى (أن) (٢) الله تعالى يؤنسه بالمرائي الحميدة إذا كان في زمان مخالفة وبدع.

السادسة: أن البداءة ليست كالنهاية؛ لأنه - صلى الله عليه وسلم - أول ما بدئ في نبوته بالمرائي ثم ترقى حتى جاءه الملك يقظة، ثم ما زال في الترقى حتى كان كقاب قوسين أو أدنى.

كذلك الأتباع يترقون في مقام الولايات ما عدا مقام النبوة حتى ينتهوا إلى مقام المعرفة والرضا، فمن نال مقاماً فدام عليه بأدبه ترقى إلى ما هو أعلى منه، ويشهد لذلك ما حكي

عن بعضهم أنه ما زال في الترقى إلى أن سرى سره من سماء إلى سماء إلى قاب قوسين أو أدنى فنودي: هنا سرى بذات محمد السنية حيث سرى بسرك.

السابعة: أن المرابي أفضل من غيره.

الثامنة: أن الأولى بأهل البداءة الخلوة والاعتزال ولما صار مآله - صلى الله عليه وسلم - إلى

(١). طبقات الأولياء (٤٤٠).

(٢). التوضيح (٣٢٤/٢) وما بعدها.

ما صار كان إذا سجد غمز أهله فتضم رجلها حيث سجد.

التاسعة: أن الخلوة عون الإنسان على تعبدته وصلاحه.

العاشرة: مشروعية التسبب في الزاد لدخول الخلوة أو المعتكف، إظهار لوصف العبودية وفي مخالفته نوع ادعاء، ولهذا كان بعض أهل الطريق إذا دخل خلوته أخذ رغيماً وألقاه تحت وسادته، وواصل أياماً، ولأن في اتخاذه أيضاً قطع تشوف النفس وقلقها والفيض من الله.

الحادية عشرة: أن المرء إذا خرج لتعبده يُعلم أهله؛ لأنه معرض هو وهم للآفات، ولأن فيه إدخال السرور عليهم (بإعلامه لهم) (١)، وفيه أيضاً الإعلام بموضعه ليرافق في التعبد والانقطاع.

الثانية عشرة: أن الشغل اليسير الضروري لا يكون قاطعاً للعبادة؛ لأنها أخبرت أنه - صلى الله عليه وسلم - كان يتحنث الليالي ولم تذكر ذلك في رجوعه إلى أهله، فدل على أن ذلك هو الكثير.

الثالثة عشرة: جواز التورية، وهي إظهار شيء والمراد خلافه إذا كان فيه مصلحة؛ لأن جبريل كان يعلم أنه - صلى الله عليه وسلم - غير قارئ، ولكن قال له ذلك؛ ليتوصل به إلى ما يريد من الغط كما سلف، وكذلك كان - صلى الله عليه وسلم - إذا خرج إلى جهة ورى غيرها، ولو كان غطه له بغير سبب؛ لكان ذلك زيادة في النفور والوحشة.

الرابعة عشرة: أن أمر السائل إذا كان يحتمل وجهين أو وجوهاً فيجيب بأظهرها ويترك ماعداها؛ لأنه لما كان لغط جبريل - عليه السلام - يحتمل طلب القراءة منه - صلى الله عليه وسلم - ابتداء وهو الأظهر ويحتمل طلبها منه لما يلقي إليه، وهو المقصود في هذا الموضع لما ظهر بعد، أجاب - صلى الله عليه وسلم - بالأظهر وهو المعهود من الفصحاء في مخاطباتهم. الخامسة عشرة: فيه دلالة لمن ذهب من العلماء أن أول الواجبات الإيمان دون النظر، والاستدلال شرط كمال لا شرط صحة؛ لأن قوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ} (العلق: ١) تمت به الفائدة وحصل به الإيمان المجزئ، وقوله بعده {الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ} (العلق: ١)..... إلخ.

هذا وقد نقل العديد من الأئمة عن الإمام ابن أبي جمرة رحمه الله تعالى، والذي اتضح لي

من خلال استقرائي لنقولات هؤلاء الأئمة الأعلام أن أغلب الشراح الذين نقلوا كلام ابن أبي جمرة كان نقلهم لكلامه على سبيل الرضا به والموافقة والاستئناس والاستدلال، بل كان بعضهم يثني عليه ويمدحه على آرائه كما تقدم، ولم يكن منهم اعتراض إلا في مواضع قليلة ونادرة، وسوف أسوق بعض الأمثلة التي خالف فيها الشراح ابن أبي جمرة رحمه الله:

١- عند تعرض ابن أبي جمرة - رحمه الله - لشرح قوله صلى الله عليه وسلم (لقد خشيت على نفسي) قال: يحتمل أن تكون خشيته من الوعك الذي أصابه من قبل الملك. أه فقد خالفه ابن الملقن - رحمه الله - في شرحه فقال - بعد أن نقل قوله -: والأظهر أنها من الكهانة لكثرتها في زمانه^(١).

كما خالفه في ذلك أيضاً ابن حجر، فبعد ما ذكر اثنا عشر قولاً في معناها من ضمنها قول ابن أبي جمرة قال - أي ابن حجر -: وأولى هذه الأقوال بالصواب وأسلمها من الارتياب الثالث^(٢).

قلت: والثالث الذي أشار إليه هو شدة الموت من الرعب، وهو غير قول ابن أبي جمرة.

٢- في مسألة تسميت العاطس نقل ابن حجر - رحمه الله تعالى - في شرحه عن الإمام ابن أبي جمرة - رحمه الله - أنه قال: "قال جماعة من علمائنا أنه فرض عين" ثم ذكر القول الثاني بأنه فرض كفاية، والثالث بأنه مستحب، ثم قال: والأحاديث الصحيحة الدالة على الوجوب لا تنافي كونه على الكفاية، فإن الأمر بتسميت العاطس وإن ورد في عموم المكلفين ففرض الكفاية يخاطب به الجميع على الأصح، ويسقط بفعل كونه فرض عين^(٣).

وفي هذه المسألة نرى ابن حجر لم يرجح ما ذهب إليه ابن أبي جمرة، وإنما رجح القول الثاني.

وغيرها من الأمثلة التي تبرز هذا المعنى من أن الأئمة الذين نقلوا عن ابن حجر كانت لهم مخالفات لما ذهب إليه ابن أبي جمرة.

(١). التوضيح لابن الملقن (٢/٣٧٤).

(٢). فتح الباري لابن حجر (١/٢٤).

(٣). فتح الباري لابن حجر (١٠/٦٠٣).

المبحث الثاني

الاتجاه الإشاري عند ابن أبي جمرة

يعتبر العالم الرباني: عبد الله بن أبي جمرة – رحمه الله – من أبرز أعلام هذا الاتجاه، فقد كان هدفه هو إبراز المعاني الدقيقة، واللطائف البديعة في فهم الحديث الشريف، وترسيخ الإيمان، وإصلاح الباطن، وتهذيب السلوك، فكلما عرض لحديث التمس منه ما يمكن أن يخدم هدفه مع اعتبار المعاني الأخرى الظاهرة أو المستنبطة.

ولما كان هذا الاتجاه سائداً عند السادة الصوفية، وكان منهم المعتدلون ومنهم الغالون في هذا الأمر، ويسمونه (العلم اللدني) فكان ابن أبي جمرة يرى أن الجمع بين الشريعة والحقيقة من كمال الإيمان وهو أساس من أسس الصوفية ويجعل الكثير من الأحاديث الصحيحة دليلاً على أقوالهم لتقوية حججهم، إلا أنه ينكر عليهم أموراً عدة ويوافقهم في غيرها.

فينكر على الصوفية في قوله: (يأتون بألفاظ يدعونها فمناها قولهم: بالعلم اللدني، ويؤثرونه على علم الشرع المنقول، ويقولون بأنهم أخذوا بغير واسطة، وغيرهم أخذوا بالواسطة، وهذا منهم جهل وخطأ لا شك ولا خفاء لقوله صلى الله عليه وسلم: "إنما

العلم بالتعلم" (١)(٢).

إلا أنه يقر بالعلم اللدني ويدلل عليه بالنصوص الشرعية:

مثل قوله تعالى " وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ " (٣).

وقوله تعالى " قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى " وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٨٢) " (٤).

(١) - سنده حسن: أخرجه البخاري في " صحيحه " (١/١٦٠ - بشرح الفتح) معلقا، ووصله ابن أبي عاصم في " كتاب العلم - " كما في " تعليق التعليق " (٢/٧٨) للحافظ-، والطبراني في " المعجم الكبير " (١٩/٣٩٥) ٩٢٩ من طريق هشام بن عمار ثنا صدقة بن خالد ثنا عتبة بن أبي حكيم عن حدثه عن معاوية مرفوعا. قال الهيثمي (١/١٢٨): " وفيه رجل لم يسم، وعتبة بن أبي حكيم وثقه أبو حاتم وأبوزرعة وابن حبان، وضعف.

وقال ابن حجر في " الفتح " (١/١٦١): إسناده حسن إلا أن فيه مبهماً اعتضد بمجيئه من وجه آخر. وللحديث شواهد تقويه، منها:

١. حديث أبي هريرة مرفوعا، أخرجه الخطيب البغدادي في " تاريخه " (٩/١٢٧) بإسناد حسن إن شاء الله تعالى.

٢. حديث أبي الدرداء مرفوعا وموقوفا:

أما المرفوع: فقال في " المجمع " (١/١٢٨): " رواه الطبراني في " الأوسط " وفيه محمد بن الحسن بن أبي يزيد، وهو كذاب. " وقال الحافظ العراقي في " تخرج الإحياء " (٣/١٧٦): " أخرجه الطبراني والدارقطني في " العلل " من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف ".

وأما الموقوف؛ فأخرجه أبو خيثمة في " كتاب العلم " (١١٤)، وابن عبد البر في " جامع بيان العلم " (١/١٠٠ - ١٠١ و١٣٥ - ١٣٦)، وإسناده صحيح.

٣ - أثير عبد الله بن مسعود الموقوف: أخرجه أبو خيثمة (١١٥)، والبخاري (١/٩٢ و١٥٨ و١٥٩)، وابن عبد البر (١/١٠٠) من طريقين عن أبي الأحوص عنه. قال الهيثمي (١/١٢٩) بعد أن عزاه للبخاري: " رجاله موثقون ". (٢). بهجة النفوس (١/٤٦).

(٣). سورة البقرة آية: ٢٨٢

(٤). سورة الكهف من الآية ٦٧ إلى الآية ٨٢

يقول — رحمه الله —: قال المفسرون في معناه: أنه قال له أنا على علم من علم الله لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله لا أعلمه أنا، فعلم موسى هو التشريع، وهو المنقول الذي هو بالواسطة، وعلم الخضر هو اللدني الذي هو الإلهام بغير واسطة، وأن العلم اللدني هو حق لا شك فيه، والدليل على من ادعى وجوده أن يكون علمه موافق الكتاب والسنة، خالصاً من الشوائب، صادقاً في توجيهه عارفاً بالخواطر، صالحها وفسادها معرفة كلية^(١).

وهكذا نرى هذا الإمام الجليل والعالم الرباني ابن أبي جمرة يقر بهذا المسلك، ولكن باعتبار أن تكون هذه الإشارات موافقة للكتاب والسنة، خالصة من الشوائب، وأن يكون صاحبها صادقاً في توجيهه لله رب العالمين، عارفاً بالصالح من الفاسد من الخواطر، ونراه يستدل على ذلك من السنة الشريفة فيورد حديثاً "إن من أمتي لمحدثين وإن عمر لمنهم"^(٢)، ويبين ذلك بقوله: ظهر ذلك من عمر عيانا حين نادى لسارية وهو على المنبر في المدينة (يا سارية الجبل)^(٣) وكان سارية بالعراق أميراً على جيش المسلمين؛ فسمعه سارية فطلع بالمسلمين الجبل فنجوا من العدو لتحصنهم بالجبل منهم^(٤).

ويبين — رحمه الله — في مقدمة كتابه فيقول: هذا الكتاب يحتوي جمل من درر فرائض

(١). بهجة النفوس (٤٧/١).

(٢) - أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب: الأنبياء. باب: ﴿ أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم ﴾ (٣/١٢٧٩ ح ٣٢٨٢) بلفظ "إنه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون، وأنه إن كان في أمتي هذه منهم فإنه عمر بن الخطاب".

(٣) — سنده حسن لغيره: أخرجه أبو بكر بن خالد في فوائده (٥٦ ح ٥٥) من طريق أيوب بن خوط، عن عبد الرحمن السراج، عن نافع، أن ابن عمر رضي الله عنه أن عمر بعث سرية، فاستعمل عليهم رجلاً يقال له سارية، فبينما عمر يخطب في يوم الجمعة، فقال: (يا سارية، الجبل، يا سارية، الجبل) فوجدوا سارية قد انحاز إلى الجبل في تلك الساعة يوم الجمعة، وبينهما مسيرة شهر، وفي سنده أيوب بن خياط وهو متروك كما في تقريب التهذيب. ولكن أخرجه أبو نعيم في الدلائل (٥٢٦) من طريق ابن وهب عن يحيى بن أيوب عن محمد بن عجلان عن نافع به، نحوه.

(٤). بهجة النفوس (٤٧/١)

الشريعة وسننها ورغائبها وأدابها، وأحكامها والإشارة إلى الحقيقة بحقيقتها والإشارة إلى كيفية بين الحقيقة والشريعة وتبيين الطرق الناجية التي أشار عليه السلام إليها والإشارة إلى بيان أضرارها والتحذير عنها، وربما استدلت على بعض الوجوه التي ظهرت من الحديث بأي، وبأحاديث تناسبها، وتقويها، فمنها باللفظ، ومنها بالمعنى، وأتبع ذلك بحكايات ليشحذ الفهم بها، وليتبين بها المعنى، وربما أشرت في بعض المواضع إلى شيء من توبيخ النفس وغفلتها لعلها تنتهي عن غمها... ألخ^(١).

ويتضح من ذلك أن الإمام ابن أبي جمرة قد تناول في شرحه ما تضمنته الأحاديث من أحكام ودلالات ومقاصد وفوائد، مستدلاً على أقواله بالآيات القرآنية وتفسيرها، والأحاديث النبوية وأقوال الصحابة والتابعين وأقوال العلماء من الفقهاء وغيرهم، مستنداً إلى الاستدلال باللغة والشعر والمنطق والنظر، والقواعد الأصولية والفقهية ثم مدلاً لآراء صوفية من أحاديث الأبواب الشارح لها مبيناً منهجهم الصحيح من الفاسد أحياناً. إلا أننا نجد اتجاه ابن أبي جمرة الإشاري غالباً في شرحه، واضحاً في أسلوبه، متمكناً في عرضه، بما يفيضه الله عليه، ويفتح به على قلبه، فيبني على المعنى الظاهر، ما يستنبطه من المعاني الإشارية.

(١). بهجة النفوس (٧/١).

المبحث الثالث

معالم المسلك الإشاري عند ابن أبي جمرة

استطاع هذا العالم الرباني: ابن أبي جمرة أن يحقق أسلوباً بديعاً في شرحه لصحيح الإمام البخاري، حيث تضمن كتابه إشارات متنوعة، في مفاهيم عديدة، نذكر منها:

مسلكه الإشاري في الاستنباط بطريق الأولى

وهذا المسلك يهدف إلى تحقيق رغبة منهجية في التعامل مع النص النبوي، بقصد التربية السلوكية، ليتوصل بها إلى إقرار حقيقة خفية تظهر بالإشارة.

فترى تعليق ابن أبي جمرة على مجانية المجذوم الوارد في قوله صلى الله عليه وسلم "لَا عَدْوَى وَلَا طَيْرَةَ وَلَا هَامَةَ وَلَا صَفَرَ وَفِرًّا مِنَ الْمُجذُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الْأَسَدِ"^(١) قال: "وإذا أمرنا بالهرب من جذام الأبدان، فمن باب أولى الهرب من جذام الأديان وهم أصحاب البدع والشيع، لأن المرض في قلوبهم، والسم الباطن أشد سرياناً من الظاهر"^(٢).

فهو هنا لم ينف المعنى الظاهر المتبادر إلى الذهن عند التعرض لهذا الحديث، الذي هو الحذر من العدوى واتقاء المرض ومنع جميع أسبابه ومنها تعديته من المريض إلى السليم، ولكن الإمام ابن أبي جمرة - رحمه الله - لاحظ ما يشبه هذا المعنى في أحوال القلوب وطرق التربية والتزكية النفسية فعبر إليه على جهة التمثيل، فعمد إلى حال شبيهه بمعنى جذام الأبدان الذي ينتقل وهو أمراض القلوب التي تنتقل بالمعاشرة وطول الصحبة لأصحابها.

وهذا المسلك قد سلكه ابن القيم - رحمه الله - فقال عند تعليقه على حديث (لا صلاة بغير طهور)^(٣): (طهارة الثوب والبدن إذا كانت شرطاً في صحة الصلاة والاعتداد بها، فإذا أخل بها كانت فاسدة، فكيف إذا كان القلب نجساً ولم يطهره صاحبه؟ فكيف يعتد له بصلاته وإن أسقطت القضاء؟ وهل طهارة الظاهر إلا تكميل لطهارة الباطن)^(٤).

(١). أخرجه البخاري ك الطب باب الجذام (٥٧٠٧) من حديث أبي هريرة.

(٢). بهجة النفوس (١٣٤/٤).

(٣). أخرجه مسلم في صحيحه ك الطهارة باب وجوب الطهارة للصلاة (٢٢٤).

(٤). مدارج السالكين (٤٠٦/٢).

فترى أن الحديث ظاهر في عدم صحة الصلاة بغير طهور، لكن أهل السلوك يرون فيه إشارة إلى أن عدم طهارة الباطن مانعة من قبول الصلاة من باب أولى .
ونقل عن شيخه ابن تيمية، فقال: وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: الصحيح منها: ما يدل عليه اللفظ بإشارته من باب قياس الأولى .
قلت: مثاله قوله تعالى: (لا يمسه إلا المطهرون)^(١)، قال [ابن تيمية]: والصحيح في الآية أن المراد به الصحف التي بأيدي الملائكة... لكن تدل الآية بإشارتها على أنه لا يمسه المصحف إلا طاهر، لأنه إذا كانت تلك الصحف لا يمسه إلا المطهرون لكرامتها على الله فهذه الصحف أولى أن لا يمسه إلا طاهر...^(٢).

مسلكه الإشاري في تزكية النفس وترقيتها

ويعتبر هذا المسلك معلماً بارزاً من معالم الاتجاه الإشاري عند ابن أبي جمرة في شرحه للأحاديث، حيث كان أسلوبه الإشاري في تزكية النفس وتربيتها وتقويمها، هو الغالب عليه في كتابه.

فتراه حين تعرض لشرح الحديث الأول: عن عائشة قالت: أَوَّلُ مَا بُدِيََ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوَحْيِ الرَّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، فَكَانَ يَأْتِي حِرَاءً فَيَتَحَنَّنُ فِيهِ، وَهُوَ التَّعَبُّدُ، اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ، وَيَتَزَوَّدُ لَذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى حَدِيجَةَ فَتُزَوِّدُهُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى فَجِئَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فِيهِ، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِيٍّ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِيٍّ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِيٍّ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّلَاثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} [العلق: ١] - حَتَّى بَلَغَ - {عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: ٥] فَرَجَعَ بِهَا تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ، حَتَّى دَخَلَ عَلَى حَدِيجَةَ، فَقَالَ: زَمَلُونِي زَمَلُونِي فَرَمَلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ: يَا حَدِيجَةُ، مَا لِي وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ،

(١). سورة الواقعة آية: ٧٩

(٢). مدارج السالكين (٢٤١٦).

وقال: قَدْ حَشَيْتُ عَلَى نَفْسِي فَقَالَتْ لَهُ: كَلَّا، أَبَشِرْ، فَوَاللَّهِ لَا يُحْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، ثُمَّ انْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قُصَيِّ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أَخُو أَبِيهَا، وَكَانَ امْرَأً تَنْصَرُّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِي فَيَكْتُبُ بِالْعَرَبِيَّةِ مِنَ الْإِنْجِيلِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: أَيِّ ابْنِ عَمِّ، اسْمِعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ وَرَقَةُ: ابْنُ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا رَأَى، فَقَالَ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَدَعًا، أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوْمُخْرِجِي هُمْ فَقَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا عُودِي، وَإِنْ يُدْرِكُنِي يَوْمُكَ أَنْصُرَكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُؤَقِّي، وَقَفَرَ الْوَحْيُ فَتَرَةً حَتَّى حَزَنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِيمَا بَلَغْنَا، حُزْنًا غَدَاً مِنْهُ مِرَارًا كَيْ يَتَرَدَّى مِنْ رُؤُوسِ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ، فَكَلَّمَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ لِكَيْ يُلْقِيَ مِنْهُ نَفْسَهُ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيْلُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا، فَيَسْكُنُ لِدُنْكَ جَأْشُهُ، وَتَقِرُّ نَفْسُهُ، فَيَرْجِعُ، فَإِذَا طَالَتْ عَلَيْهِ فَتْرَةُ الْوَحْيِ غَدَاً لِمِثْلِ ذَلِكَ، فَإِذَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيْلُ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ.

نرى ابن أبي جمرة قد استهل شرح هذا الحديث بقوله: "هذا الحديث يحتوي على فوائد كثيرة من أحكام وآداب ومعرفة بقواعد جملة من قواعد الإيمان، ومعرفة بالسلوك والترقي في المقامات، ولأجل ما فيه من هذه المعاني حدث به النبي صلى الله عليه وسلم عائشة رضي الله عنها لتبدي ذلك للناس، لكي يتأسوا بتلك الآداب، ويحصل لهم معرفة بكيفية الترقي من مقام إلى مقام، ويعرف منه مقتضى الحكمة في تربيته وتأديبه، ولأجل ما فيه من فوائد حدثت به عائشة وأخذ عنها^(١).

ومن إشارات ابن أبي جمرة في هذا الحديث، عند تعليقه على قوله صلى الله عليه وسلم (فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد) فيه إشارة إلى مبدأ التخلي والتحلي، فيقول عن أهل

(١). بهجة النفوس (٨/١).

السلوك: إن التحلي لا يكون إلا بعد التخلي، لأن النبي صلى الله عليه وسلم تخلى أولاً حتى لم يبق من مجهوده غاية، فلما أن كان تخليه أفضل وأشرف من تخلي غيره، والبشر قاصر عن التخلي لها، ضمه جبريل عليه السلام حتى حصل له تخلي من نسبة ذلك التحلي، ولذلك قال: (حتى بلغ مني الجهد)، لأن التخلي هو ضمه إليه حتى بلغ من مجاهدة النفس الغاية، والتخلي هو إلقاء الوحي إليه، وهذا دليل على ما قدمناه وهو أن من دخل في الطريق بالتربية والتدريج أفضل ممن لم يكن له ذلك، إذ هذا كله تربية وتدرج للنبي صلى الله عليه وسلم، فما كان عليه السلام يرقى من مقام حتى يحكم أدب الأول، ويفهم معناه، وما احتوى عليه من الفوائد^(١).

وقد أشار ابن أبي جمرة إلى هذا المعنى في أكثر من حديث، فعند تعليقه على حديث الإسراء والمعراج، وما فيه من شق صدره، وغسل قلبه صلى الله عليه وسلم قبل الإسراء، وهو حديث (بَيْنَا أَنَا عِنْدَ الْبَيْتِ بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ، إِذْ سَمِعْتُ قَائِلًا يَقُولُ: أَحَدُ الثَّلَاثَةِ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ، فَأُتِيَتْ فَانْطَلِقَ بِي، فَأُتِيَتْ بَطَسَتْ مِنْ دَهَبٍ فِيهَا مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ، فَشُرِحَ صَدْرِي إِلَى كَذَا وَكَذَا، قَالَ فَتَادَةٌ: فَقُلْتُ لِلَّذِي مَعِيَ مَا يَعْنِي قَالَ: إِلَى أَسْفَلِ بَطْنِهِ، فَاسْتُخْرِجَ قَلْبِي، فَغُسِلَ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ أُعِيدَ مَكَانَهُ، ثُمَّ حُشِيَ إِيمَانًا وَحِكْمَةً، ثُمَّ أُتِيَتْ بِدَائِيَةِ أَبْيَضَ، يُقَالُ لَهُ: الْبُرَاقُ، فَوْقَ الْجَمَارِ، وَدُونَ الْبَغْلِ، يَقَعُ خَطْوُهُ عِنْدَ أَقْصَى طَرْفِهِ، فَحُمِلَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ انْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا)^(٢).

ذكر ابن أبي جمرة - رحمه الله - أن فيه إشارة إلى أن التحلي يكون بعد التخلي، أي إن تحلية النفس بالصفات الحميدة لا تتم إلا بعد تخليتها من الصفات الذميمة^(٣).

مسلكه الإشاري في تحصيل المعرفة والفقه

ومن معالم الاتجاه الإشاري عند ابن أبي جمرة إشاراتُه إلى نور الفهم والعلم والتفقه في دين الله تعالى، وأنه ليس قاصراً على كثرة الرواية وتحصيل الكتب، وإنما ما يقذفه الله في قلب

(١). بهجة النفوس (١/١٠).

(٢). أخرجه البخاري في صحيحه كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة (٣٢٠٧).

(٣). بهجة النفوس (٢/٩٠).

العبد المخلص في توجيهه إلى الله حين تحصيله وتفقيهه، هو المراد الحقيقي، ومن أهم الأمثلة التي وقفت عليها عند إشارات لهذا المعنى، لما عرض لحديث (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)^(١). فقال .رحمه الله .:

وهذا الفقه لا يؤخذ إلا بالتعلم علي ما أشار إليه عليه السلام في الحديث بعد فيأخذ أولاً في الحفظ والضبط والاجتهاد في مطالعة الكتب الصحاح فإذا فعل هذا كان له الأجر علي نفس فعله ذلك، إذا كان لله خالصاً لا يشرك فيه غيره وأجره أجر الناقل الثقة ولذلك قال عليه السلام: (رب حامل فقه إلي من هو أفقه منه)^(٢) وكذلك قوله عليه السلام في حجه الوداع: (ألا فليبلغ الشاهد الغائب فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعي له من بعض من سمعه)^(٣)، أي اعمل ثم بعد تحصيل ما أشرنا إليه والعمل به يأتيه اذ ذاك الفقه وهو النور يقذفه الله في قلبه يكون معه الفهم أو به بقدره الله . عزوجل . ولذلك قال الإمام مالك .رحمه الله .: ليس العلم بكثرة الرواية وإنما العلم نور يضعه الله في القلوب، لأن الحفظ مع قلة الفهم قل أن يكون معه عمل، وقد ذم الله . عزوجل . من صدر منه ذلك في الكتاب حيث قال " كمثل الحمار يحمل أسفاراً"^(٤) ولأجل عدم تحصيل هذا الشرط الذي أشرنا إليه، هو سبب لحصول هذا الفقه كان كثيراً ممن يدعي العلم بزعمهم، لما حفظوا بعض الكتب وطالعوا بعض الشروحات إذا سمعوا معني من معاني لم يروه منقولاً في الكتب التي حفظوها أو طالعوها، يقع منهم الإنكار مرة واحدة ويحتجون بأن يقولوا ما سمعنا من قال هذا، وإن رأوا في بعض الكتب مسألة وهم قائلها أو صحفت في النقل أخذوها بالقبول ووقع

(١). أخرجه البخاري في صحيحه كتاب العلم باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين (٧١).

(٢) - صحيح: أخرجه ابن ماجة في سننه [افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم \(١٨\) باب من بلغ علماً](#) (١/٨٦ ح ٢٣٦) من حديث أنس بن مالك، وأحمد في مسنده (٢٧/٣٠٠ ح ١٦٧٣٨) من حديث جبير بن مطعم، وأبو داود الطيالسي (١/٥٠٥ ح ٦١٨) من حديث زيد بن ثابت.

(٣) - أخرجه البخاري كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) (٧٤٤٧)، ومسلم

كتاب القسامة، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض (١٦٧٩) من حديث أبي بكر رضي الله عنه

(٤). سورة الجمعة آية: ٥

لها التسليم، وقالوا هي منقولة ونسبها إلي صاحب الكتاب، ولا ذلك إلا لعدم النور الذي به يفهمون، لأجل أن البساط الذي عليه يأتي لم يفعلوه، مع أن البساط قد وقع من بعضهم في الظاهر الذي هو النقل، كما أشرنا إليه، لكن حرموا من أحد وجهين: إما أن يكون عملهم غير الله، وإذا كان ذلك فالنور عليهم حرام لأن النبي صلي الله عليه وسلم يقول: " من عمل من هذه الأعمال شيئاً يريد به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة" (١) ورائحة الجنة تشم علي مسيرة خمسمائة سنة وإما أن يدخل عليهم العجب في نقلهم فيظنوا أن ذلك هو غاية العلم فيحسبوا أنفسهم من العلماء فيحرموا لأجل دعواهم فلو رزق المسكين معرفة نفسه وإنه إنما يطلق عليه ناقل إن كان نقله علي وجهه لرجي له عند الاعتراف بحاله وعجزه بأن الله تعالي يمن عليه بشيء من النور، ومن رزق شيئاً من النور رجي له التوفيق والزيادة حتي يلحق بأهل الخير العميم المتقدمي الذكر فالحاصل من أحوالهم اليوم أن الكل رجعت عندهم أسفاراً منقولة الأصول والشروح أسفاراً محمولة، وهذا هو نفس ما ذم الله تعال في كتابه كما تقدم وقلما يكون مع ذلك التوفيق نعوذ بالله من العمي والضلال (٢).

وهذه الإشارة الجليلة قد أقرها علماء الأمة ومخلصيها فهذا ابن القيم يقول في "إعلام الموقعين" (٣): واقتدى الإمام أحمد بقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون، فإنهم تجلى لهم أمور صادقة، وذلك لقرب قلوبهم من الله، وكلما قرب القلب من الله زالت عنه معارضات السوء، وكان نور كشفه للحق أتم وأقوى، وكلما بعد عن الله كثرت عليه المعارضات، وضعف نور كشفه للصواب، فإن العلم نور يقذفه الله في القلب يفرق به العبد بين الخطأ والصواب، وقال مالك للشافعي رضي الله عنهما في أول ما لقيه: إني أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً فلا تطفئه بظلمات المعصية.

(١) — سنده صحيح: أخرجه أبو داود في سننه كتاب العلم باب طلب اعلم لغير وجه الله (٣/٣٢٣ح ٣٦٦٤)

وأحمد في مسنده (١٤/١٦٩ح ٨٤٥٧) من حديث أبي هريرة.

(٢). كتاب بهجة النفوس (١/١٠٦. ١٠٧).

(٣). إعلام الموقعين (٢/٥١٣).

وقال الإمام الدَّهَبِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -: وإنما شأن المحدث اليوم الاعتناء بالدواوين الستة، ومسند أحمد بن حنبل، وسنن البيهقي، وضبط متونها وأسانيدها، ثم لا ينتفع بذلك حتى يتقي ربه، ويدين بالحديث، فعلى علم الحديث وعلمائه ليبيك من كان باكياً، فقد عاد الإسلام المحض غريباً كما بدأ، فليسع امرؤ في فكاك رقبتك من النار، فلا حول ولا قوة إلا بالله، ثم العلم ليس هو بكثرة الرواية، ولكنه نور يقذفه الله في القلب، وشرطه الاتباع، والفرار من الهوى والابتداع، وفقنا الله وإياكم لطاعته (١).

مسلكه الإشاري في الوعظ

حين يعلق ابن حجر على أحاديث الوعظ في الترغيب والترهيب، يأتي بلطائف بديعة، وإشارات حكيمة، تأخذ بلب المخاطب ووجدانه، وتثير عواطفه وأحاسيسه، فنراه عند شرحه لحديث عبد الله بن مسعود " إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ « فَقَالَ بِهِ هَكَذَا، قَالَ أَبُو شَهَابٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: بِيَدِهِ فَوْقَ أَنْفِهِ " (٢).

في هذه الموعظة الواردة عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يُبَيِّنُ وَقَعَ المعصية على كِلِّ من المؤمن والفاجر؛ فهي ثقيلة على المؤمن ثقل الجبل الذي يخشى من ثقله إذا وقع، وهي خفيفة على الفاجر خفة ذباب يقع على الأنف وسرعان ما يغادرها، والإمام ابن أبي جمرة يوضح سبب هذا الحال من العبد، فيقول - رحمه الله -: السبب في ذلك أن قلب الفاجر مظلّم؛ فوقع الذنب خفيف عنده، ولهذا تجد من يقع في المعصية إذا وعظ يقول: هذا سهل، وقال ويستفاد من الحديث أن قلة خوف المؤمن ذنوبه، وخفته عليه يدل على فجوره.

وقال: والحكمة في تشبيه ذنوب الفاجر بالذباب كون الذباب أخف الطير، وأحقره، وهو مما يعاين ويدفع بأقل الأشياء.

وقال وفي ذكر الأنف مبالغة في اعتقاده خفة الذنب عنده؛ لأن الذباب قلما ينزل على

(١). سير أعلام النبلاء (٣١٣/١٣).

(٢). أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الدعوات باب التوبة (٦٣٠٨).

الأنف، وإنما يقصد غالباً العين.

وقال: وفي إشارته بيده تأكيد للخفة أيضاً لأنه بهذا القدر اليسير يدفع ضرره^(١).

مسلكه الإشاري في تزكية القلوب

كان من أهم مقاصد ابن جمرة في إشاراتهِ، مراعاة حال القلوب، ومراقبتها، والعمل دائماً على استحضار القلوب مع الله، وعدم التفاته إلى غيره، فنجدهُ يعلق على هذا الحديث (شكى إلى النبي صلى الله عليه وسلم الرجل يجد في الصلاة شيئاً أيقطع الصلاة؟ قال: "لا حتى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً"^(٢)).

ظاهرُ الحديث يدلُّ على أنَّه لا يَقْطَعُ الصلاةَ مَنْ يُخَيَّلُ له شيءٌ حتى يسمعَ صوتاً أو يجدَ ريحاً.

لكن الإمام ابن أبي جمرة - رحمه الله -: ذكر أن فيه إشارة لأهل القلوب ألا يلتفتوا، إلى الشكوك ولا إلى العوارض لا قليلاً ولا كثيراً، ولذلك يقولون "إن الملتفت عندهم هالك"^(٣).
واتضح مما سبق أن الإمام ابن أبي جمرة. رحمه الله. يهدف عند شرحه للحديث، إلى توجيه الحديث الشريف توجيهاً روحياً، ليصل في النهاية إلى تربية القلوب، وتهذيب النفوس وتزكيتها، وحملها على الفضائل ومنعها من الرذائل، ولا يفهم من هذا أن المعاني الأخرى الظاهرة أو المستنبطة غير مرادة، إنما المعاني الإشارية قدر زائد على ذلك بسبب الحاجة المستمرة إلى التزكية والرقى بالنفوس، والارتقاء من مقام إلى مقام، فكلما نظر الناظر في الحديث الشريف، واستخلص ما فيه من أحكام بحسب قواعد الاستنباط، فما الذي يمنع بعد ذلك من استخراج المعاني الإشارية حتى ولو كانت خفية، فإنها واردة ولها في الشريعة ما يؤيدها، ولهذا يشترط في هذه المعاني الإشارية ألا تعارض أصلاً مقرراً في الشريعة، أو يوجد من الأدلة ما يعارضها، وأن تدخل تحت قواعد الشرع.

(١). بهجة النفوس (٤/٢٠٢.٢٠١).

(٢). أخرجه البخاري كتاب الوضوء باب من لم ير الوضوء إلا من المخرجين: من القبيل والدير (١٧٧).

(٣). بهجة النفوس (٢/٢٥٦).

ويعتبر ابن أبي جمرة - رحمه الله - من رواد هذا الاتجاه، وقد استفاد منه من أتى بعده من شراح صحيح البخاري.

مسلكه الإشاري في سؤال العالم العارف

لما كان العلماء العارفون بالله هم خير من يؤتمنون في الاستشارة، لأنهم يبحثون عن مرضاة الله ورسوله، أكد ابن أبي جمرة على هذا المسلك عند شرحه للأحاديث على هذا المعنى، وكلما تعرض لشرح حديث يشير إلى هذا المعنى ولو من بعيد، وإنما هي إشارة خفية ظهرت له ذكرها.

فناه خين تعرض لحديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، يقول: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فاستأذنه في الجهاد، فقال: "أحي والداك؟" قال: نعم، قال: "ففيهما فجاهد"^(١).

قال ابن أبي جمرة - رحمه الله - : فيه دليل على أن طاعة العالم أو العارف لا تكون إلا بمقتضى لسان العلم والترجيح فيها والأخذ بالأعلى، فالأعلى بمقتضى الحال، لأن هذا الصحابي رضي الله عنه لما أراد الجهاد لما سمع فيه من الرغبة وعزم على فعله خاف أن يكون هناك فعل أقرب إلى الله تعالى بالنسبة إلى حاله فسأل النبي صلى الله عليه وسلم سؤال إرشاد ليتبين له ما هو الأصح في حقه والأقرب إلى الله تعالى؟ فذكر له عليه الصلاة والسلام الحديث، ولهذا المعنى أشار أهل المعرفة بقولهم: (طاعة الجاهل شهوة، وطاعة العارف امتثال) يؤيد هذا قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ} {الإسراء: ٥٧}.

وقد أشار ابن تيمية إلى هذا المعنى فقال: والعبد العارف بالله تتحد إرادته بإرادة الله بحيث لا يريد إلا ما يريد الله أمرا به ورضا ولا يحب إلا ما يحبه الله ولا يبغض إلا ما يبغضه الله ولا يلتفت إلى عدل العاذلين ولوم اللائمين كما قال سبحانه: {فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة

(١). أخرجه البخاري ك [الجهاد والسير باب الجهاد بإذن الأبيون](#) (٣٠٠٤).

لائم}. والكلام في مقامات العارفين طويل^(١).

ومن قبله قال الغزالي - رحمه الله -: قلب العارف بالله تعالى الموقن به خير من ألف قلب من العوام، وقد قال تعالى: وأنتم الأعلى إن كنتم مؤمنين؛ تفضيلاً للمؤمنين على المسلمين. والمراد به المؤمن العارف دون المقلد، وقال عز وجل: "يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ" (المجادلة: ١١) فأراد ههنا بالذين آمنوا: الذين صدقوا من غير علم وميزهم عن الذين أوتوا العلم^(٢).

وهذه نماذج من أهم مسالك الاتجاه الإشاري في فهم السنة النبوية المطهرة عند الإمام ابن أبي جمرة رحمه الله، وأمثلة من تصرفه في النظر في السنة والإفادة منها، وقد اتضح من تلك الأمثلة أن الإمام ابن أبي جمرة رحمه الله كان يقصد إلى توجيه الحديث نحو ما يمكن أن يستفاد منه في جانب تربية القلوب، وتهذيب النفوس وتزكيتها، وحملها على الفضائل ومنعها من الرذائل.

ولكن لا يفهم من هذا أن المعاني الأخرى الظاهرة أو المستنبطة غير مرادة، إنما المعاني الإشارية قدر زائد على ذلك بسبب الحاجة المستمرة إلى التزكية والرقى بالنفس، فكلما نظر الناظر في الحديث واستنبط ما فيه من أحكام بحسب قواعد الاستنباط، فما الذي يمنع بعد ذلك من استخراج المعاني الإشارية حتى ولو كانت خفية فإنها واردة ولها في الشريعة ما يؤيدها، ولهذا يشترط في هذه المعاني الإشارية ألا تعارض أصلاً مقرراً في الشريعة، أو يوجد من الأدلة ما يعارضها، وأن تدخل تحت قواعد الشرع. والإمام ابن أبي جمرة رحمه الله كان رائداً في هذا الاتجاه، لأنه وضع أمامه مقصد بناء الإيمان في القلوب، وتزكية النفوس وتربيتها.

إن منهج الإمام ابن أبي جمرة رحمه الله في فهم السنة النبوية وفقه الحديث الشريف وسلامة فهمه، يقوم على تحكيم القواعد المعتبرة في ذلك التي تواضع عليها العلماء وسار عليها شراح الحديث، ثم الارتقاء من ذلك إلى استخلاص الإشارات والدقائق التربوية

(١). الفتاوى (٧٧/١٤).

(٢). إحياء علوم الدين (٢٣/٣).

والقواعد العملية السلوكية، وهو بذلك يؤكد أن فقه الحديث وفهمه نظرياً ليس إلا وسيلة لتحصل التزكية من الحديث، فمن وقف عند الفقه النظري الذي يستخلص الأحكام فكأنه في منتصف الطريق، فلا يبلغ غاية المقصود من السنة النبوية إلا بأن يستكمل الفقه باقتباس مسالك التربية وطرق التزكية والسير عليها. والله تعالى يقول في وصف نبيه وبيان مقصد بعثته: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ آل عمران: ١٦٤ فلا فقه إلا بالعلم وسلامة الفهم، ولا عبرة بالعلم وسلامة الفهم إلا بالتزكية، والتزكية تقوم على اتهام النفس، ثم السعي في تخليتها عن الرذائل والمجاهدة في تحليتها بالفضائل.

المبحث الرابع

الصناعة الحديثية عند ابن أبي جمرة في شرح مختصر صحيح البخاري

من أهم المسائل التي تميز الشخصية في هذا العلم الشريف الصناعة الحديثية، ومدى تمكنه فيها، سوف أتعرض لهذه المسألة مع الإمام ابن أبي جمرة في ضوء كتابه (شرح مختصر صحيح الإمام البخاري) من جانبين، وذلك في مطلبين:

المطلب الأول: الصناعة في الإسناد

والحقيقة في ضوء اطلاعي على هذا الكتاب فإن الإمام ابن أبي جمرة - رحمه الله تعالى - لم يتعرض في شرحه للكلام على الإسناد، ولم تظهر الصناعة الإسنادية عنده، وذلك لأن الإمام لم يذكر الأسانيد أصلاً في مختصره لصحيح الإمام البخاري، بل حذفها اختصاراً، واكتفى بذكر الراوي الأعلى للحديث فقط، وكان غرضه - رحمه الله - من ذلك أن يكون شرحه مختصراً، أو مقتصراً على متن الحديث الشريف، يستنبط منه القواعد والمهمات والفوائد، ليسهل على القارئ تناوله، ليصل إلى مراده وبغيته من ثمرة الحديث الشريف مباشرة دون الغوص في الكلام على الأسانيد والرجال.

وقد أفصح الإمام ابن أبي جمرة عن ذلك في مقدمة كتابه فقال: وبعد، فلما كان الحديث وحفظه من أقرب الوسائل إلى الله عز وجل بمقتضى الآثار في ذلك...، ورأيت الهمم قد قصرت عن حفظها مع كثرة كتبها من أجل أسانيدها، فرأيت أن آخذ من أصح كتبه كتاباً أختصر منه أحاديث بحسب الحاجة إليها، وأختصر أسانيد ما عدا راوي الحديث، فلا بد منه فيسهل حفظها، وتكثر الفائدة إن شاء الله تعالى^(١).

وبسبب هذا الأمر لم يتضمن الشرح الصناعة الإسنادية التي يمكن أن نقف عليها ونبحثها وندرسها، وإنما اقتصر الإمام على الصناعة الحديثية في جانب متن الحديث.

المطلب الثاني: الصناعة في المتن

كما قلت لم يول ابن أبي جمرة مسائل علوم الحديث وبخاصة الصناعة الإسنادية في

(١). بهجة النفوس (٦/١).

شرحه، وإنما ظهرت الصنعة الحديثية عند ابن أبي جمرة في متن الحديث الشريف، حيث اهتم بلفظ الحديث من حيث بيان غريبه، وجمع ألفاظه وروايته، وبيان سبب ورود الحديث، وحل مشكله ومختلفة، ومن أبرز الجوانب التي ظهرت في كتابه الجوانب التربوية والسلوكية، حيث أولاهما اهتماماً كبيراً في شرحه، وسوف أسوق بعض الأمثلة على ذلك:

١. الإشارة إلى ألفاظ الحديث في الروايات أو الطرق الأخرى

اهتم ابن أبي جمرة بهذا الجانب في شرحه، ولكن لا نستطيع أن نقول أن هذا منهجاً عاماً في جميع شرحه، وإنما تعرض لذلك في بعض الأحاديث، أذكر منها:

١- في حديث التشهد المشروع في الصلاة^(١)، ذكر ابن أبي جمرة الروايات الأخرى في التشهد الواردة عن عائشة وابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم جميعاً، غير الرواية التي في حديث الباب عن ابن مسعود، وقال: والمعنى في الكل واحد غير أن في بعض الألفاظ اختلافاً، وكلها في الصحيح، وبأيها تشهد أجزأ بلا خلاف أعرفه بين أحد من العلماء خلف عن سلف^(٢).

٢- حديث الأمر بتحريم الرجوع في الصدقة وقوله صلى الله عليه وسلم لعمر (ولا تعد في صدقتك)^(٣)، قال ابن أبي جمرة: وقد زيد في الحديث من طريق آخر (كالكلب يعود في قيئه)^(٤).

٢. بيانه لغريب الحديث

اهتم ابن أبي جمرة في شرحه بألفاظ الحديث، وشرحه للغريب منها، ولكنه لم يتوسع في ذلك، وإنما يذكر المعنى مباشرة، ومثال ذلك:

١- في حديث بدء الوحي يقول: الوجه الرابع والعشرون: قوله "فغطني حتى بلغ مني الجهد"

(١). أخرجه البخاري كتاب الاستئذان باب السلام اسم من أسماء الله تعالى (٥٨٧٦).

(٢). بهجة النفوس (١٨٩/٤).

(٣). أخرجه البخاري كتاب الزكاة باب هل يشتري في صدقته (١٤١٨) والزيادة التي أشار إليها ابن أبي جمرة (

كالكلب يعود في قيئه) كتاب الهبة باب هبة الرجل لامرأته والمرأة لزوجها (٢٤٤٩).

(٤). بهجة النفوس (٣٠/٣).

يريد أنه ضمه حتى بلغ منه الجهد، والجهد عبارة عن شدة الغط والضم^(١).
ويقول أيضاً: الوجه الستون: قولها (ثم لم ينشب ورقة أن توفي) تريد أن ورقة لم تطل حياته^(٢).

٢. وحين تعرض لحديث "إن الدين يسر"^(٣)، يقول:.. لأن الدلجة: هو آخر الليل...^(٤).

٣- بيانه لسبب ورود الحديث

من المباحث التي تتعلق بالصناعة الحديثية وعلوم الحديث الشريف المتعلقة بالمتن بيان ابن أبي جمرة سبب ورود الحديث، وهو من أهم علوم الحديث، لأن فهم الحديث مرتبط به، وبدون معرفة سبب ورود الحديث قد لا يفهم المراد من الحديث، وقد يعمم خاصه، ويخصص عامه، ويصرف إلى غير مراده، وقد بين ابن أبي جمرة سبب ورود بعض الأحاديث، وإن كان ذلك قد وقع منه في مواطن محدودة من شرحه، منها: عندما تعرض لحديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم في بنت حمزة رضي الله عنها: "لا تحل لي، يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب هي بنت أخي من الرضاعة"^(٥).

قال ابن أبي جمرة: لأن ابنة حمزة خطبت للنبي صلى الله عليه وسلم ورُغب فيها...^(٦).
وقد تعرض ابن أبي جمرة لقضايا متعددة تتعلق بالمتن، مما يؤكد على تميز ابن أبي جمرة على صنعة الحديثية في متن الحديث الشريف، وإن كانت قليلة.

(١). بهجة النفوس (١/١٥)

(٢). بهجة النفوس (١/٢٢)

(٣). أخرجه البخاري كتاب الايمان باب الدين يسر(٣٩)

(٤). بهجة النفوس (١/١٥)

(٥). أخرجه البخاري كتاب الشهادات باب الشهادة على الأنساب والرضاع (٢٥٠٢)

(٦). بهجة النفوس (٣/٣٣)

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين بدءاً وختماً، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وصفاً وذاتاً واسماً.

وبعد

فإنني في ختام هذا البحث الذي طوّفت فيه حول شخصية الإمام ابن أبي جمرة واتجاهه الإشاري في فهم السنة النبوية المطهرة، أجمل النتائج التي توصلت إليها فيما يلي:

١- الاتجاه الإشاري في فهم الحديث هو عبارة عن استجلاء معنى خفي من الحديث، يطلعه الله عز وجل على أهل خاصته من عباده.

٢- أن هذه الإشارات الخفية التي استظهرها الإمام ابن أبي جمرة رحمه عند شرحه لأحاديث مختصر صحيح الإمام البخاري تتوافق في مجملها مع أصول الشريعة من الكتاب العزيز والسنة النبوية المطهرة.

٣- أن الإمام ابن أبي جمرة رحمه الله يعتبر من رواد هذا الاتجاه، وقد استفاد منه في هذا الباب من أتى بعده ممن شرحوا أحاديث الإمام البخاري رحمه الله، كالإمام ابن حجر وابن الملقن وغيرهم.

٤- يعد كتاب (بهجة النفوس وتحليها بمعرفة مالها وعليها) لابن أبي جمرة من أهم كتب الحديث الشريف في تراثنا الإسلامي العريق، في شرح هذه الأحاديث المختارة من صحيح الإمام البخاري شرحاً مستفيضاً يتأسس على الأداء اللغوي للحديث الشريف، وينطلق بعد إلى ما يتضمنه من إشارات فقهية وتشريعية وسلوكية.

٥- عدم تعرض ابن أبي جمرة للأسانيد وخلو شرحه من الصنعة الإسنادية.

٦- اهتمام ابن أبي جمرة بجانب متن الحديث الشريف واستنباطه الفوائد التربوية والروحية.

٧- ينبغي الاهتمام والعناية بالمسلك الإشاري في شرح الحديث النبوي، من خلال تقديم الأبحاث والدراسات الجادة حوله، لتبيين مفهومه، ومدى الاستفادة منه، والعمل على تجديده وتطويره.

وفي الختام:

أوصي بتدريس كتاب (بهجة النفوس) في إحدى المراحل التعليمية بالأزهر الشريف، لما فيه من وسائل تربوية وسلوكية، وإشارات وإشراقات روحية، يكون لها الأثر البالغ في شبابنا اليوم.

المصادر والمراجع

- ١- إحياء علوم الدين المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ) الناشر: دار المعرفة - بيروت
٢. الأعلام لخير الدين، الزركلي (ت ١٣٩٦هـ) دار العلم للملايين، ط ١٥. مايو ٢٠٠٢
٣. الإكمال لابن ماكولا دار الكتاب العربي بيروت
٤. بهجة النفوس وتحليها بما لها وما عليها لابن أبي جمرة، ط ١، ١٣٤٨هـ
٥. البداية والنهاية لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤هـ)، دار الفكر، ١٤٠٧ هـ ١٩٨٦ م.
- ٦- تهذيب التهذيب المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ) الناشر: مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند الطبعة: الطبعة الأولى، ١٣٢٦هـ.
- ٧- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ) الناشر: الدار التونسية للنشر - تونس سنة النشر: ١٩٨٤ هـ.
- ٨- الحلل السندسية في الأخبار والآثار. الأمير شكيب أرسلان. ج. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى. ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٧ م.
- ٩- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد بن محمد بن عمر بن علي ابن سالم مخلوف (ت ١٣٦٠هـ)، علق عليه: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، لبنان ط ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٣ م.
- ١٠- صحيح البخاري المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.
١١. العواصم من القواصم لأبي بكر بن العربي المالكي. دار التراث. القاهرة.
١٢. فوائد أبي بكر النصيبي المؤلف: أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ بْنِ خَلَادِ بْنِ مَنْصُورِ النَّصِيبِيِّ

- ثُمَّ الْبَغْدَادِيُّ الْعَطَّارُ (المتوفى: ٣٥٩هـ) الناشر: مخطوط نُشِرَ في برنامج جوامع الكلم المجاني التابع لموقع الشبكة الإسلامية الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤
- ١٣- فيض القدير شرح الجامع الصغير المؤلف: زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفى: ١٠٣١هـ) الناشر: المكتبة التجارية الكبرى - مصر الطبعة: الأولى، ١٣٥٦.
- ١٤- الفقيه والمتفقه المؤلف: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ) المحقق: أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي الناشر: دار ابن الجوزي - السعودية الطبعة: الثانية، ١٤٢١هـ.
- ١٥- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة (ت ١٠٦٧هـ)، مكتبة المثنى. بغداد، ١٩٤١م.
- ١٦- مجموع الفتاوى المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ) المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية عام النشر: ١٤١٠م
- ١٧- جامع المسائل - المجموعة الرابعة المؤلف: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨هـ) تحقيق: محمد عزيز شمس إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد الناشر: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع - مكة الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.
- ١٨- مختصر صحيح البخاري لابن أبي جمرة (٦٩٩هـ)، دار المنهاج ط ١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- ١٩- معجم البلدان. يا قوت الحموي دار الفكر. بيروت.
- ٢٠- معجم المؤلفين لعمر بن رضا كحالة (ت ١٤٠٨هـ) مكتبة المثنى - بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت
- ٢١- معرفة أنواع علوم الحديث، ويُعرف بمقدمة ابن الصلاح المؤلف: عثمان بن عبد الرحمن، أبوعمر، تقي الدين المعروف بابن الصلاح (المتوفى: ٦٤٣هـ) المحقق: نور الدين عتر الناشر: دار الفكر- سوريا، دار الفكر المعاصر - بيروت سنة النشر: ١٤٠٦هـ.

٢٢. مناهل العرفان: محمد عبد العظيم الزقاني، ط. عيسى الحلبي.
- ٢٣ — المعجب في تلخيص أخبار المغرب. عبد الواحد المراكشي. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. لجنة إحياء التراث الإسلامي. الجمهورية العربية المتحدة. تحقيق محمد سعيد العرياني المحدث الفاصل بين الراوي والواعي المؤلف: أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خالد الرامهرمزي الفارسي (المتوفى: ٣٦٠ هـ) المحقق: د. محمد عجاج الخطيب الناشر: دار الفكر.
- ٢٤- نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكتي (ت ١٠٣٦ هـ)، عناية وتقديم: الدكتور عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكاتب، طرابلس. ليبيا ط٢، ٢٠٠٠ م.
- ٢٥- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين لإسماعيل بن محمد أمين البغدادي (ت ١٣٩٩ هـ)، طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها الهيئة استانبول ١٩٥١.

فهرس الموضوعات

المحتويات

ملخص البحث.....	٣٥٣
مقدمة.....	٣٥٥
تمهيد: مفهوم الاتجاه الإشاري في فهم النص النبوي.....	٣٥٧
المبحث الأول: التعريف بابن أبي جمرة وكتابه (بهجة النفوس) وتأثر العلماء به	٣٦٦
المبحث الثاني: الاتجاه الإشاري عند ابن أبي جمرة.....	٣٧٧
المبحث الثالث: معالم المسلك الإشاري عند ابن أبي جمرة.....	٣٨١
المبحث الرابع: الصناعة الحديثية عند ابن أبي جمرة في شرح مختصر صحيح البخاري.....	٣٩٢
المطلب الأول: الصناعة في الإسناد.....	٣٩٢
المطلب الثاني: الصناعة في المتن.....	٣٩٢
المصادر والمراجع.....	٣٩٧
فهرس الموضوعات.....	٤٠٠